
الرواية التي خافت أمل نشرها
في حياتها
فائزة بجائزة الحسناء
الرواية الملعونة
أمل جرّاح
دار الساقي

أمل جرّاح

الرواية الملعونة

دار الساقي

هذا الكتاب مُجازٌ لمتعتك الشخصية فقط. لا يمكن إعادة بيعه أو إعطاؤه لأشخاصٍ آخرين. إذا كنت مهتمّاً بمشاركة هذا الكتاب مع شخصٍ آخر، فالرجاء شراء نسخة إضافيَة لكل شخص. وإذا كنتَ تقرأ هذا الكتاب ولم تشتره، أو إذا لم يُشترَ لاستخدامك الشخصي،

فالرجاء شراء نسختك الخاصّة. شكراً لك لاحترامك عمل المؤلّف الشاق.

© أمل جرّاح، 2010، 2011
جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الورقية الأولى، 2010
الطبعة الإلكترونية، 2011

ISBN-978-614-425-149-2

دار الساقي
بناية النور، شارع العويني، فردان، بيروت. ص.ب.: 5342/113. الرمز البريدي: 6114 - 2033
هاتف: 866442 1 961، فاكس: 866443 1 961

e-mail: **info@daralsaqi.com**

يمكنكم شراء كتبنا عبر موقعنا الإلكتروني

www.daralsaqi.com

المحتويات

مسابقة "الحسناء" للتأليف:

سنية صالح للشعر
سلوى صافي للقصة القصيرة
أمل جراح للرواية
وحجب جائزة المسرحية







بعد مطالعة النصوص المقدمة الى مسابقة «الحسناء» للتأليف، التي شملت المسرحية والرواية ومجموعة القصص القصيرة (أو المقالات) وديوان الشعر، قررت اللجنة المؤلفة من الآنسة غادة السمان والاستاذين جبرا ابراهيم جبرا ويوسف الخال ما يأتي:

١ — حجب جائزة المسرحية.

٢ — منح جائزة افضل ديوان شعر السيدة سنية صالح (سورية) على مجموعتها «حبر الاعدام».

٣ — منح السيدة سلوى صافي (لبنانية) جائزة افضل مجموعة قصص قصيرة على مجموعتها «حديقة الصخور».

٤ — منح السيدة أمل جراح (سورية) جائزة افضل رواية على روايتها «خلني بين ذراعيك».

ويذكر ان قيمة كل من الجوائز المعطاة هي ٥٠٠ ليرة لبنانية.

أمل جراح:

قلبي المتعب هو معلمي الأول

— اين ولدت؟

— في دمشق، ٦ حزيران ١٩٤٥

— لماذا امل جراح؟

— امل جراح ... [illegible]

[illegible]

سلوى صافي:

أخاف ان اصبح تاجرة كلمات

سلوى صالح

(مجلّة «الحسناء»، 1968. اللجنة كانت مؤلفة من: غادة السمّان وجبرا إبراهيم جبرا ويوسف الخال، ورئيس تحرير المجلة: أنسي الحاج، ومدير التحرير: رفيق خوري).

ـ 1 ـ

مرّةً، كان الربيع يضحك في نَهْدي، عرفت أن عُمر الزهرة كعُمر الغيمة، وأن الشمس لن تملَّ العالم، وستظل أبداً تطلّ إطلالتها من الشرق. ويصفرُّ وجهها في المساء.

صرخ أبي:

ـ أنت دائماً تنظرين هناك... ماذا بك؟ ما الذي يشغل بالك.

ركضت نحوه. أحبه. وجهه المتعب يشدّني إلى التحديق في عينيه الداكنتين.

عامان وهو لا يبتسم. رحلت عنه أمي رحلتها الأبدية، وتركتني مع شقيقين تزوَجا وابتعدا.. وبقيت وحدي ألملِمُ عنه هرمَ الأيام، وأعتني به كالقطة.

عاد هادئاً:

ـ دائماً مع النافذة يا حنان؟

ـ أحبَ الفضاء الرحب. هل حاولت مرّة أن تعدَ النجوم؟

ـ أيتها الحالمة من الذي يحاول أن يعدّ النجوم؟ تعالي. ضعي أصابعك في شعري، قولي لي كم شعرة بيضاء هناك.

غرزت أصابعي في الشعر الناعم الكثيف. كم أحبّ شعره الناعم الكثيف. ضممت رأسه إلى صدري وضغطت به على نهدي. خرجت كلماته واهنة:

ـ صرتِ صبيّة يا حنان. غداً ستتزوجين.

ـ لن أتركك أبداً. أنت لي يا أبي.

لأول مرّة أحسَسْتُ أن شيئاً ينفعل في أعماقه. أمسك بيدي:

ـ حنان... سوف يحبّك أحد زملائك، صرت جميلة وطريّة، أما أحسست أن العيون تلتهمك؟

عادت أصابعي إلى الرأس الأشيب. في الجامعة وكان لي ثلاثة شهور على هذا الجو الجديد، بدأت اعتاد رؤية الشبّان يتودّدون إليّ. يحاولون أن يحيطوني برعاية دائمة. وكنت أفرح بهم.

ـ أبي أنا لا أفعل شيئاً لا يرضيك.

ـ كوني حذرة يا حنان... عيون الذئاب دائماً تحت أجفان الحمَل الوديع.

ـ لا يهمّك، أنا حنان. وأنت فخور بي أليس كذلك؟

ـ كلّما تقدّمتِ فسأكون فخوراً بك أكثر. آه يا حنان متى أرتاح.

ـ انتظر. سوف أصبح مدرِّسة، وسوف أكتب الشعر. ستقرأ اسمي كثيراً، وستقول لكل أصحابك: حنان ابنتي. هذه حنان ابنتي.

- حنان، لماذا كانوا في الجاهلية يئدون البنات؟

- لأنهم كانوا مجانين.

- أنت حنان حقيقي يا حنان، سوف أدلّك على قلبي.

- أعرف مكانه. لن أتركك أبداً.

وأشرقت الشمس في وجه أبي، منذ عامين لم أره كما رأيته اللحظة. منذ عامين وهو داكِن الوجه والعينين والكلمات. منذ عامين وهو ينظر أبداً إلى الصورة الوحيدة المتربَعة على الراديو في إطارها الأسود: صورة أمي الراحلة كالسَّوْسَن الذي أحاطوه بالحرائق، ثم جف وتلاشى. فرحت، وقررت أن أقتلع أبي من ظل أمي. كنت أحبها أيضاً، حباً يجعلني أحسّ أصابعها على جبيني أبداً. بعد عام من رحيلها تزوَج أخواي ورحلا: أحدهما إلى حلب، والآخر إلى المرفأ مهندساً ميكانيكياً. ومازال أبي أجمل منهما. كنت دائماً أتمنى أن أحبّ شاباً مثله. يشبهه. يمسك بسيجارته كما يمسك بها أبي.

قال:

- حدّثيني عن الجامعة.

كانت المرة الأولى التي يسألني فيها عن الجامعة. سررت للتحوَل... سوف أفوز به، سوف أبعده عن ظلّ أمَي. صارت أمَي ركاماً الآن، ويجب أن يعيش أبي، أن يعيش فمازال شاباً.

- أنا مسرورة. جوَ الجامعة جميل.

أشعل لُفافة. واقترب مني. كان سخيَّ النظرات. منذ عامين لم يتباسط معي في الحديث.

وقرَرت شيئاً.

يجب أن أزيل من ذهنه كل أثر للماضي.

ـ أنا سعيد بك يا حنان. أرجو من اللّهً أن لا ألحق بأمك قبل أن أراك في القمَة وشاعرة، ومشهورة.

ـ أبي سوف تعيش طويلاً. مازلت شاباً.

ضحك:

ـ شاباً مثل شباب الجامعة؟

ـ أوه... ليس في الجامعة شبّان. إنهم صغار. طلاب مدرسة.

وفجأة غام وجهه في الكآبة، ثم همس كما لو كان يبكي:

ـ صدقت المرحومة، كانت دائماً تتمنّى أن تموت قبلي. كانت تقول لي: أنا أكبر منك بستّ سنين، لابدَّ أن أموت قبلك بستّ سنين. بقي لي أربع سنوات يا حنان.

ـ هس. لاتقلَ هذا الكلام. الأعمار بيد اللّهً. جدّك عاش تسعين سنة وكذلك جدّي. ألم تقل لي ذلك؟

ظلّ حزيناً. راحت عيناه تبحثان عن بصمات أصابع أمي. مازال كل شيء في المنزل كما تركته. كم كانت تحبَ التحف الصغيرة الجميلة. لم تكن تمضي مناسبة

إلاّ تأتي ببعض منها، حتى أصبح منزلنا متحفاً صغيراً لها.

ـ أمّك كانت جميلة عندما كنت أنت طفلة.. كانت بيضاء كالبجعة. كنت لا أرى سماءً زرقاء مثل زُرْقَة عينيها، وكانت حنونة. مثلما أنت الآن... أنت تشبهينها يا حنان.

لا أريد أن أذكّره بالحزن، أيضاً، يجب أن أمسح ظل أمي من وجهي.

ـ قولي لي، هل هناك من يرتدي ثياباً أجمل من ثيابك في الجامعة؟

ـ ليس دائماً.

ـ لا. يجب أن تكوني أبداً أجمل فتاة، وأحلى أناقة من أي واحدة من رفيقاتك. إذا احتجت إلى شيء فاطلبيه مني... أنا لم يبق لي من أمل سواك، وكل ما سوف أشتغل به سيكون لك.

ـ ولك أيضاً يا أبي. يجب أن تشاركني في كل شيء... أليس كذلك؟

ـ طبعاً... طبعاً.

أصمت ثم أقول له:

ـ أنا أحبّ اختيارك الرقيق لربطات عنقك، لبزّاتك الكحلية والرصاصية والسوداء، لأحذيتك، وجواربك.. كلك ذوق.

امّحت من وجه أبي التجعّدات، بينما هو يرمقني بحنان آسر لم ألمحه في عيني الراحلة منذ ولدت.

لم أذهب إلى الجامعة اليوم. كانت ثمة امرأة فقيرة تقطن في جوارنا، تطل على البيت بين الحين والحين وتنظفه. كانت أمي تحبّها. وأذكر أن أمي حاولت إقناع أبي بجلب خادمة إلى البيت، فكان يقول لها: أنا لا أحب الغرباء، ابحثي عن واحدة تعتني لك بالبيت وتعاونك في إعداد الطعام ثم ترحل إلى بيتها، هذا أفضل. جلبت أمي ذات يوم أم حسن، أرملة مات زوجها منذ زمن وابنها لديه صالون حلاقة للرجال. اعتدنا وجودها بيننا. وكثيراً ما كانت تُعِدّ لنا أنواعاً من الطعام دون تدخل أمي. وعندما رحلت أمي بكت كثيراً، وناحت كما لو أن الراحلة ابنتها.

مازالت أم حسن تعتني بنا. ولكنها هي أيضاً تذكّر أبي بأمي، ويجب أن أعمل جاهدة كي لا يشاهدها في المنزل.

وعندما ودعني أبي اليوم لمحت في عينيه حزنه القديم وهو يرمق أم حسن حين كانت تأخذ فناجين القهوة.

اقتربت منها وقلت لها:

- أم حسن أنت مثل أمي. أنت تعتنين بنا كثيراً.

ـ وأنت مثل ابنتي يا حنان. أنا واحدة منكم.

ـ أريد منك شيئاً.

ـ قولي.

ـ لا تأتي باكراً بعد اليوم. تعالي بعد التاسعة. إنك توقظين نفسك باكراً من أجل إعداد القهوة وسأوفر عليك ذلك. منذ الغد سأصنع القهوة أنا. أنت تعالي متأخرة، تناولي فطور الصباح مع ابنك واعتني ببيتك، ثم تعالي إلينا. أنت تعرفين أن أبي قد اعتاد أن لا يتناول فطور الصباح، وأنا صرت مثله، فلا تتعبي نفسك من أجل فنجان القهوة، سأقوم بهذه المهمة عنك، ثم تأتين بعد التاسعة ويكون أبي قد ذهب إلى مكتبه، وأنا أستعد للذهاب إلى الجامعة. ما رأيك؟

قلبت أم حسن شفتها السفلى، وحدقت قليلاً بي ثم قالت:

ـ كما تحبين يا ابنتي.

سررت. هذا هو انتصاري الأول. غداً سيفاجأ أبي وأنا أقرع باب غرفته وأوقظه من النوم وأشدَه من يده ثم أقدَم له فنجان القهوة. سيفرح. هي المرة الأولى التي سيراني فيها أعتني به.

ورحت في ما بعد أبدّل أمكنة أشياء كثيرة موزّعة في الصالون وغرف المنزل وخاصة التحف الصغيرة. قلت في نفسي: إذا لم ينتبه فسوف أزيلها رويداً رويداً.

ولم تكد تصبح الساعة الواحدة، حتى أصبح المنزل جديداً كل الجدّة على أبي، بينما كانت أم حسن قد هيّأت لنا طعام الغداء.

قلت في نفسي «سأتركها اليوم تضع لنا الطعام بحضور والدي، فإذا لم يمتعض غداً في غيابها أثناء تقديم القهوة، فسوف أعدَ الغُدَة لأحلّ محلّها أيضاً وقت الغداء».

وبعد أن أصبح كل شيء جاهزاً لاستقبال أبي عقصت شعري إلى الوراء وارتديت فستاني الأصفر... وجلست أنتظر قدومه.

كنت أرقب الطريق من النافذة.

لم يمضِ على ذلك نصف ساعة حتى أطلّت من رأس الشارع سيارة تاكسي أدركت أنها تحمل إليّ أبي.

هبط من السيارة بالقرب من مدخل البناء، أنيقاً ورقيقاً في مشيته، يحمل محفظته الجلدية البنّية اللون تحت إبطه برِقّة متناهية. وأسرعت إلى الباب أفتحه.

كان قد وصل إلى الدرجات القريبة عندما لمحني. فارتسمت على وجهه أمارات الدهشة والانشراح معاً. وما إن ولج الباب حتى همس وهو يضمّني إلى صدره:

- أنتِ هنا يا حنان؟

- أنتظرك يا أبي.

- ألم تذهبي إلى الجامعة؟

ـ لم يكن ذهابي ضرورياً اليوم.

وانتبه إلى التبديل الواضح الذي جرى في المنزل، فراح يجيل الطَّرْفَ بين جنباته ثم همس:

ـ حنان أحدثت انقلاباً في المنزل؟

ـ ليس انقلاباً، ولكن حتى لا نملَ، ما رأيك؟

ـ ذوقك جميل يا عزيزتي.

وضع محفظته إلى جانب المذياع. والتفت نحوي هامساً:

ـ إذا ربحت هذه القضية فسوف نسافر معاً في رحلة جميلة نمضي بها عطلتنا السنوية.

ـ ستربحها يا أبي، أنا واثقة.

ـ تشجيعك جميل. ثمن الأتعاب سيكون جيداً. لكن القضية معقَّدة يا حنان، بحاجة إلى دراسة مستمرة، وبحاجة إلى مراجعة كتب القوانين.

ـ آه من كتب القوانين. متى ترتاح منها يا أبي؟

ـ عندما أجدك قد أمَنت مستقبلك تماماً.

وقفت خلف أبي وخلعت عنه جاكيته ثم أمسكت بيده وتقدَمت به إلى طاولة الطعام.

ـ هه.. ماذا هيَأت لنا أمحسن؟ إنها تطبخ جيداً أليس كذلك؟

ـ أجل.

- طبعاً، لقد تعلَمت من أمك المرحومة كل الأنواع التي تجيدها. أنا ما زلت أحسّ طعم طبخ أمك تحت لساني.

- طبخت لنا أم حسن «يبرق وسجق» ألا تحبهما.

- طبعاً. ولكن ليس دائماً.

- اسمع، أبي، غداً سوف أجلب لك قائمة طعام وعليك أنت أن تختار كل يوم الأكلة التي تحبها. ما رأيك؟

- لا، لا. أنا لا أحب اختيار الطعام منذ الصباح. ما بك حنان؟ ليس مهماً أن نفكر منذ الصباح باختيار الطعام. أنت اختاري كيفما يحلو لك وأنا سأكون مسروراً بأي صنف تختارينه.

- لا بأس.

- ولكن، ما لك أنت والأكل؟ اتركي الموضوع لأم حسن واهتمي بدروسك.

- لديّ الوقت الكافي للاهتمام بدروسي، أما فراغي فهو كله لك.

- لا لست أريد كل فراغك، نصف فراغك يكفي.

- كما تريد.

وبدأت أمحسن تضع الصحون على الطاولة. وراحت أصابع أبي تتسلّى بالتهام بعض حبّات الزيتون.

كان متعباً. وكان يرمق محفظته البنّية بين لحظة وأخرى ثم يعود بنظراته إلى صورة أمي التي مازالت في مكانها. شعرت بأنه يحاول باستمرار أن لا يضع

عينيه في عيني وأدركت بماذا يفكّر. مددت يدي ووضعتها على يده. ثم همست:

- بابا سوف تربح القضية.

تجرّأت. مددت يدي إلى كتبه. يحب أبي كتبه كثيراً، حتى إنه لم يكن يسمح لأحد أن يمسح ولو غبارها. مسحتُ غُبارها. رتّبتها من جديد. منذ رحلت أمي وأبي لا يكاد يجلس في مكتبه. صار يسهر خارجاً، ويدرس قضاياه في مكتب عمله بينما كان يفعل ذلك في المنزل، وكان بيتنا بطبيعته هادئاً، ما جعل جوّه يناسب أبي كثيراً. كان يصطحبنا في الأسبوع مرّتين، مرّة لحضور فيلم سينما أنا أختاره ومرة لتناول العشاء في مكان ما هو يختاره. وكان يحدّث أمي كما لو أنه عرفها للتوّ، بلباقة ورقة متناهيتين. وكنت أحلم من خلال وجهه أن أنال رجلاً مثله ذات يوم. كنت أشبّهه دائماً برجال السينما الأجانب. وفكّرت كثيراً: «تُرى هل له علاقات غرامية مع نسوة مجهولات». وكنت أبعد عني هذا الخاطر بمجرّد أن أراقب تصرّفه مع أمي. كان تصرّفه دائماً تصرّف العاشق المولّه. وكانت أمي تستحق. فهي جميلة. وقد رحلت وهي جميلة، ناعمة وتكاد تذوب من رقتها. ولم أسمع في حياتي صوت أحدهما يعلو على صوت الآخر. كانا منسجمين كما لو أنهما سمكتان وحيدتان في بحر. وتمنّيت كلما ازددت اكتشافاً

لحياتهما على وعي الأيام أن أفوز في المستقبل بزوج من هذا النوع. وقتها كنت أحسد أمي وأتساءل كيف استطاعت أن تفوز به.

كان أبي يدرس السنة الأخيرة في الحقوق، عندما أطلّت هي على الجامعة حين كانت الجامعيات نادرات. كانت أكثرهن أناقة فلفتَتْ أنظار الجميع. ولكن أبي كان فارساً حقيقياً فاستطاع أن يفوز بها. ومرّا بمرحلة صعبة كان خلالها في صراع مع أهلها، ولكنه انتصر أخيراً وتزوجها. وما إن حملت بأخي الأكبر حتى توقفت عن متابعة دراستها على أمل العودة إليها. لكن قدوم أخي الثاني ثم قدومي شغلاها عن تحقيق أملها في العودة إلى الدراسة. وحين شبَبْنا عن الطوق صرنا نسمع منها أنها أصبحت غير نادمة لتركها الدراسة. كان أبي قد أصبح أبي محامياً لامعاً ودخله الكبير يجعلنا نعيش في رفاه وكرم.

كانت كتبه كثيرة، كلّها تتعلق بالقوانين والأدب العربي القديم والتراث ودواوين شعر مختلفة من المتنبّي وعمربن أبي ربيعة وجميل بُثينة إلى الشعراء المعاصرين، كلها كتب مجلدة بألوان مختلفة. ولم تنسَ أمي أن تضع في زوايا المكتبة تحفها الصغيرة ولوحاتها التي كان أكثرها تقليداً للوحات عالمية ولكن بالإبرة والخيط الملوّن.

غرفته هذه كالمحراب، أحببتها كثيراً. وشعرت فيها باطمئنان طاغٍ وهدوء ذاتي وأخذت أفكّر: سوف أنقل الطاولة إلى هنا... لا، الأفضل أن تكون إلى جهة الجدار حتى يستطيع أن يطلّ على الطريق متى شاء. لا، سوف يشغله الطريق عن التفكير في عمله وفي حلّ قضاياه. ولكن الطريق ليس مزدحماً وهو شارع متفرّع عن الشارع الرئيسي، ولا يقصده إلا ساكنوه. لابأس، ليكن الجدار خلفه عندما يجلس إلى طاولته. أما هذه اللوحات فسأخفي بعضها اليوم. وهذه المكتبة سوف أنقلها إلى الجدار الآخر وأضع مكانها المقعدين المخمليين والطربيزة المدوّرة المحفورة حفراً جميلاً. يجب أن أعيد الشباب إلى هذه الغرفة. نظرت إلى الساعة، إنها العاشرة. لن أتعب، مددت يدي إلى السجادة الإيرانية فطويتها ورفعتها إلى جانب. وشددت الطاولة فوجدتها ثقيلة ولكن لابأس، أستطيع سحبها، سحبتها، وأدرتها وجررت المقعد ووضعته خلفها. وكان الغبار يملأ مكانها. دبّ فيَ نشاط جيّد فأسرعت إلى غرفتي وجلبت منديلاً حزمت به رأسي. أحسّت أمحسن بالحركة المفاجئة. جاءت إليّ. ولما رأت ما فعلت قالت: لن يرضى سيدي بما تفعلين. قلت لها بلباقة: «لقد استشرته يا أمحسن، أنت، أرجوك اهتمي بالطعام، لا تقلقي». قالت: «لا سأساعدك». قلت: «أستطيع أن أرتب

كل شيء وحدي، لا تقلقي، اذهبي إلى المطبخ ودعيني».

انسحبت أم حسن، وبدأتُ مهمتي. كان نقل المكتب إلى زاوية الغرفة عسيراً. ولكن الصورة الجديدة التي رسمتها في ذهني للغرفة جعلتني أنشط أكثر. أخذ العرق يتصبّب من جسدي رغم أن الوقت شتاء. ولكني ثابرت. تكوّمت الكتب في أمكنة مختلفة، هنا وهناك، وندمت. تعبت كثيراً ولم أفعل شيئاً. أجلت الطرف من جديد في أنحاء الغرفة ثم عدت إلى العمل. نظرت إلى الساعة عندما أنزلت آخر كتاب من المكتبة فإذا بها الحادية عشرة والنصف، قلت لايزال لديّ الوقت. بدأت بمحاولة لزعزعة المكتبة دون جدوى، فاضطررت إلى الاستنجاد بأمحسن. أسرعت إليّ، وابتسمت عندما طلبت إليها أن تعاونني في سحب المكتبة إلى الجدار المقابل. واستطعنا معاً أن نسحبها.

بعد أن ثبتُّ المكتبة في مكانها الجديد، رجوت أم حسن أن تتركني، وعدت فمسحت الرفوف الملأى بالغبار، ثم أخذت أعدو بين أطراف الغرفة أجلب الكتب محافظة على التسلسل نفسه الذي وضِعت به في الأصل. وضَعْت كتب القانون وحدها وكانت مكسوّة بالغبار فرحت أنفض عنها ما علق بها ثم أمسحها بخرقة نظيفة، وأضعها كما كانت الواحد تلو الآخر...

لم يمضِ نصف ساعة حتى انتهيت من كتب القانون وهي أكثر ما في المكتبة، ثم رحت أرتّب بقية الكتب على نحو أجمل، ولم أنسَ أن أخفي حوالى عشر تحف صغيرة كانت موضوعة أمام الكتب فأسرعت وخبّأتها في غرفتي.

بعد حين أخذت الأمور تبدو في غاية الجمال والجدّة ففرحت. لقد خفت أن أندم. والآن أنا فرحانة. رحتُ أدَنْدِن بأغنية وأنا أتابع ترتيب الغرفة.

وأخيراً انتهى كل شيء: الطاولة في مكانها الجديد. وطاولة الهاتف والإضبارات الصغيرة على يمينها، والفانوس الكهربائي على طرفها الزجاجي اللامع، والمكتبة في مكانها الجديد. أما السجّادة فمددتها هذه المرّة بالطول، بينما كانت ممدودة بالعرض. والمقعدان المخمليان جعلتهما متقاربين أكثر من السابق، ولا أدري لماذا اهتممت كثيراً بمكان هذين المقعدين.. إنهما مريحان، لو نمت على أحدهما عشر ساعات لما تعبت.

وفيما أنا ألقي النظرة الأخيرة على ترتيب الغرفة الجديدة أحسست براحة عجيبة، وشعرت كما لو أن هذه الغرفة صارت لي، فمسحت وجهي بكمي وألقيت بنفسي على المقعد المخملي. ولأول مرة رغبت في أن أدخن سيجارة فمددت يدي إلى العلبة المذهبة وفتحتها، فصدر عنها لحن موسيقي هادئ. تناولت

سيجارة وأشعلتها لكنّ السعال فاجأني، فعدت لامتصاصها بحذر، ثم رحت أملأ فمي بدخانها وأنفخه على دفعات صغيرة أتأمل في أثنائها الدخان المتصاعد كخيط من السحاب..

وفي هذه اللحظة داعبت أعصابي سعادة لا توصف. رفعت ساقي على مِسْند المقعد ورحت أحدّق من جديد في كل أطراف الغرفة وفكرت «هل ستعجبه؟ لابدَّ أن تعجبه». واسترسلت أفكاري.

وفجأة فتح الباب، وعندما لمحته أدركت أنني نسيت الوقت. فرحت لأن السيجارة قد انتهت ورجوت أن لا ينتبه إلى رمادها. وقفت، وظللت في مكاني أشاهد دهشته الممزوجة بفرح أطفال.

والتفت نحوي صائحاً:

ـ حنان كم أنت رائعة.

اعتذرت وأنا أتقدم نحوه لأنني لم أنتبه إلى الوقت وكان شكلي مضحكاً للغاية.

عاد بي إلى صدر الغرفة وأجلسني على المقعد المخملي وجلس قُبالتي، رائحة الرجولة تفوح منه. حدّق قليلاً في وجهي، ثم همس:

ـ لأول مرة أراك هكذا يا حنان. لقد أتعبت نفسك.

ـ هذا لا يهمّ. لم تقل لي رأيك.

- أنت في غاية الذوق. يجب أن أطلق يدك لتعيدي خلق هذا البيت من جديد.

فرحت للعبارة الأخيرة، ثم همست:

- شكراً. يجب أن نعيد الحياة إلى كل شيء فيه، أليس كذلك؟

- طبعاً يا حنان. افعلي ما تشائين.

ومدّ يده يمسح بعض الغبار بين عينيّ وعلى أنفي، ثم على عنقي فشعرت بقشعريرة غريبة.

وقفت. كانت الساعة الثانية والربع.

- اعذرني يا أبي دقائق قليلة لأغتسل.

- حنان سأنتظرك لنتناول الطعام معاً.

ركضت إلى الحمّام. وبينما كنت أعبر الصالون وقعت عيناي على صورة أمي. إنها ما زالت في مكانها.

زميلاتي سيزرنني اليوم. حدّثت هيفاء قبل أيام عن التغيير الشامل الذي أجريته داخل المنزل، كانت توافقني على إنقاذ والدي من الحزن الدائم. وكنا نتحدث دائماً عن السبُل الآيلة إلى ذلك. وكثيراً ما أخفيت على هيفاء مشاعر كنت أحسّها، دون قصد مني. إلا أنني كنت أعترف لنفسي بأن هذه المشاعر هي ملكي أنا، ولا يجوز أن يطّلع عليها أي مخلوق.

كان كل شيء قد تبدّل في المنزل، إلاّ أن الشيء الوحيد الذي لم أستطع حتى الآن أن أزعزعه من مكانه هو صورة أمي. مازالت في مكانها قوية راسخة تطلّ من إطارها الأسود كوهج الشمس، جميلة مليئة بالإيحاء، يفترّ ثغرها عن ابتسامة كأنها ستقول كلمة ما للتوّ.

قلت لأبي هذا الصباح وأنا أقدّم له فنجان القهوة:

- بابا، عندي ضيوف اليوم.

- أهلاً وسهلاً.

- قلت لهم إنك ستكون موجوداً.

- أخاف أن لا يكون وجودي ضرورياً.

ـ لا، لا. هيفاء تريد أن تتعرّف إليك وكذلك سَوْسَن وامتِثال، لقد حدثتهنّ عنك كثيراً.

ـ حنان، يا ابنتي، ما الذي يجب أن أجلبه لكم معي؟

ـ خمسون قطعة من الكاتو.

ضحك. يا اللهً، مازال محتفظاً بجمال أسنانه. مرة قال لي إنه لم يذهب إلى طبيب الأسنان في حياته كلها. همس:

ـ سأجلب لك كثيراً من الأشياء.

كان حنوناً هذا الصباح، حتى إن ابتسامته التي غابت عني زمناً طويلاً لم تفارق شفتيه. كان يتبختر في الشرفة وفي يده فنجان القهوة كما لو كان شاباً في العشرين. ليت كل الشباب مثله، فهو فارع الطول، أناقته دون تبذّل، وفي عينيه السوداوين ألف ألف معنى لِكَمْ كانت سعيدة أمي. عاشا خمساً وعشرين سنة معاً. يا اللهً، ليته يعيش معي مثل هذه السنين.

عندما غادر المنزل أحسست أن قطعة مني قد فارقتني. ارتديت ملابسي وأسرعت إلى الجامعة فلدينا في العاشرة مادة الأدب العربي، ولم أنسَ أن أذكّر زميلاتي بزيارتهن لي في الرابعة بعد الظهر.

في الثانية كان لقائي مع أبي إلى طاولة الطعام، قلت له:

ـ اترك مكاناً للكاتو.

ضحك.

- وأنت كذلك.

- ثلاث رفيقات من بينهنّ هيفاء ضيوفنا اليوم. هل تذكر هيفاء؟

- لا.

- هذه التي زارتنا قبل شهرين، أول صديقة تعرّفت عليها، إنها مخلصة جداً، ونتشاكى مشاكلنا الصغيرة معاً.

- وهل لكما مشاكل تتضايقان منها؟

- بعض الأحيان.

- أوه. لماذا لا تعتبرينني صديقك يا حنان. قولي لي كل شيء، لا تخافي سوف أكون كتوماً لأسرارك.

ضحك. ثم همست:

- لن يكون سواك من ملجأ لي إذا اعترضتني مشاكل كبيرة. إلا أن الأسرار التي بيني وبين هيفاء من التفاهة بحيث لا تستحق أن تكون أنت ملجأ لها.

صمت قليلاً، ثم أردف:

- هيفاء هل هي جميلة مثلك؟

- هل نسيتها؟ إنها فاتنة..

- في أيامنا لم يكن للجميلات مكان في الجامعة. كنّ يتزوجن قبل الوصول إليها.

- الآن تغيّر كل شيء. صار الشاب يطمع أن يتزوّج جامعية، لذلك ترانا جامعيات.

ضحك مرّة أخرى بصوت عالٍ. لأول مرة أراه يضحك هكذا. لقد بدأت أحقق انتصاراتي رويداً رويداً. قال:

- سنطلق يوماً على الجامعة اسم جامعة الزواج؟

- من يدري؟ قد نطلق عليها اسماً معاكساً.

ضحك. ثم همس:

- حنان، لم أكن أعرف مدى سخريتك وخِفّة دمك.

- ولو... أنا ابنتك.

لمحت في عينيه بعض الزهو وهو يرمقني، ففرحت. عاد يقول:

- لك قدرة على أن تجعلي من الغداء فترة غير مُمِلّة.

- هل تملّ الطعام؟

- أشياء ثلاثة أملّها سريعاً: عندما تأسرني مائدة الطعام، وعندما اضطر أن أجلس على مقعد الحلاّق، وعندما اضطر أن أختنق في الحمّام.

ضحكت. ثم همست:

- خفت أن أكون أحد الأشياء التي تملّها.

- مجنونة!

- أتحبني؟

- لم يبقَ لي سواك. مجنونة!

أمسكت بيده:

- بابا، متى تسمح لي أن أطعمك بيدي.

- تريدينني أن أعود طفلاً.

ـ أنت سبب وجودي، وأنا سعيدة، لك عليّ حق الاعتناء بك.

ـ كل شيء ما عدا أن تطعميني بيدك. ألم أقل لك إنني أملُّ الطعام سريعاً؟ إياك أن تصبحي جزءاً من المائدة.

رفعت يدي عن يده. وأخذت ألتهم ما بقي من الطعام، بينما كان هو يضحك من حركاتي. ثم همس:

ـ حنان، اتركي مكاناً للكاتو.

توقفت. ونظرت إليه. هو أيضاً قد توقف. وأخذ يمسح طرف فمه بمنديل المائدة قال:

ـ أنا أيضاً تركت مكاناً للكاتو.

وقفنا معاً. كان يحلو له الوقوف في الشرفة ولو في الشتاء، وخاصة إذا كان المطر قطرات قليلة. شدّني من يدي إلى الشرفة وهناك لفحنا برد قارس. قلت:

ـ اليوم برد.

عاد بي إلى الصالون. ثم همس:

ـ احذري البرد يا حنان، أنت رقيقة.

تطلّع إلى ساعته، وقال:

ـ بقيت ساعة على موعد رفيقاتك. دعيني أستلقِ قليلاً.

ـ هل ستنام؟

ـ لا. ولكن سأرتاح فقط. اذهبي وافتحي العُلَب التي جئتك بها. هناك كاتو وبزورات مختلفة، وسجاير.

ـ سجاير؟

ـ سجاير. ألا تدخّن واحدة من صاحباتك. ثم ربما أحببتِ أن تدخّني سيجارة.

ـ أنا!

ـ يا حنان، لماذا اندهشت؟ قبل أيام كنت تدخّنين!

تذكرت أول سيجارة عندما انتهيت من ترتيب مكتبه. ضحكت. ركضت نحوه وتعمشقت بعنقه، قبّلته. ثم قلت:

ـ أنا لا أدخن. يومها رغبت في أن أنسى تعبي فتسلّيت بواحدة.

ـ وباستطاعتك اليوم أن تتسلّي.

ـ بابا، أنت إنسان رائع.

تركته ينسحب إلى غرفته وأسرعت لأعدّ العُدّة لاستقبال صديقاتي.

كانت الساعة الرابعة عندما أقبلت هيفاء أولاً. ثم جاءت سَوْسَن وامتِثال ومعهما زميلة لم أكن أعرفها شخصياً. عرّفتني سوسن إليها:

- زميلتنا في كلّية الصيدلة رباب سلو.

ملأنا البيت بضحكنا، بينما كانت هيفاء تقفز في جنباته كراقصة الباليه مدهوشة، ثم صاحت:

- أنت مهندسة ديكور يا حنان. اسمعي مني، اتركي الجامعة وافتحي مكتباً لهندسة الديكور.

قالت سوسن:

- وطبعاً سيكون جميع زبائنك من العُزّاب، فأنت جميلة.

وقالت امتثال:

- أنا لم أكن أعرف بيتك سابقاً، ولكنه هكذا مليء بالذوق والجمال.

- شكراً، شكراً.

قالت هيفاء:

- تعالي، خُذينا إلى مكتب أبيك.

كانت هيفاء ترتدي فستاناً أسود. لأول مرّة لمحتُ في وجهها الأصباغ والألوان. إنها أجمل ألف مرّة مما كنا

نراها في الجامعة. تكاد تكون أطول مني. وفستانها يظهر تقاطيع جسدها جيداً. لطالما كنا نقول لها إن جسدها يشبه جسد نجمة سينمائية. وكنا نمزح معها قائلات:

ـ سيتمتّع بك كثيراً الشاب الذي سيتزوّجك.

وكانت تقول لنا إنها لن تتزوّج، وإنها ستصبح صحافية، وسيصبح لها مجلة خاصة بالمرأة وسيكون جميع الذين سيعملون معها من الرجال.

دخلنا مكتب أبي. كان دافئاً ولذيذاً. صديقاتي أيضاً شعرن هذا الشعور.

همست هيفاء:

ـ يا اللهً! حنان، ألا يوحي لك هذا المكتب بكتابة الشعر؟

ـ كثيراً.

ـ لو أنك كتبت قصائدك التي قرأناها لك هنا لصارت أجمل. ألم تكتبي شيئاً على هذا المكتب؟

وضعت يدها على المكتب وأخذت تمسح براحتها زجاجه اللامع ثم قفزت وجلست على مقعده. سألتني:

ـ أوَلم تجلسي هنا؟

وأخذت سمّاعة الهاتف، وتظاهرت بأنها تتحدث مع أحد ما مُقلّدة أصوات الرجال.

ـ ألو. نعم. أنا المحامي عزّت. نعم. آ... قضية الرشوة تقصد... لا، لا، لا تبرّر، أريد أن أطمئنك. لقد ربحت القضية... لا لم تكن بريئاً. لا تقل لي إنك بريء ولكن هناك ثغرات كثيرة في القوانين هي التي أنقذتك... مع السلامة.

ضحكنا جميعاً. بينما أخذت هيفاء تقلّد خطوات الرجال وهي تنسحب من وراء الطاولة تمدَ يدها إلى صدرها وتقوم بحركات كأنها تشدّ ربطة عنقها، ثم تلتفت نحونا وتقول بصوت جهوري:

ـ ها... ابدئي أنت. قولي ما هي قضيتك.

صمتنا دفعة واحدة عندما سمعنا طرقات على الباب، فأسرعت وفتحته، فإذا أبي بكامل أناقته وروعته. راح يخطو خطواته الوئيدة بينما وقفت صديقاتي يرحّبن به، وكان يكرر: أهلاً وسهلاً... أهلاً وسهلاً. ثم قدّمتهن له الواحدة تلو الأخرى، فانحنى أمام كل منهنّ انحناءة بسيطة ثم صافحها برقة. سمعنا كلمات هيفاء:

ـ مكتبك جميل ومريح يا أستاذ.

ـ شكراً شكراً. هذا كله من صنع حنان.

تقدّمت منه وهمست ضاحكة:

ـ هيفاء، قبل قليل كانت محامية.

ضحكنا. إلا أن أبي قال:

ـ وماذا يمنع أن تكون هيفاء محامية؟

والتفت نحوها يسألها:

- أتدرسين الحقوق؟

- نعم.

- تخرّجي، وتعالي لتتدرّبي في مكتبي.

- أفكر أن أعمل في الصحافة.

- الصحافة؟ ولماذا خطرت بذهنك هذه المهنة المتعبة؟

- أنا أحب الضجيج والرحلات وعدم الانتظام في العمل. مهنة الصحافة هكذا.

- من قال لك ذلك؟ ألا تعرفين أنها مهنة البحث عن المتاعب؟

صمت قليلاً، ثم أردف موجّهاً الحديث إلى الجميع:

- هل أنتنّ مرتاحات هنا؟ لنذهب إلى الصالون فهو أفضل.

وخرج، فتبعناه. ولمحت من غير قصد تعلّق نظرات هيفاء به وهو يخرج. فارتجف قلبي.

في الصالون توزّعن المقاعد بينما جلس أبي في الزاوية وهو يردد:

- أهلاً وسهلاً... أهلاً وسهلاً.

ابتدأت هيفاء الحديث قائلة:

- أستاذ، أليس للمحاماة متاعبها أيضاً؟

ـ ما من مهنة إلا لها متاعبها. لكن المحاماة لها لذائذها أيضاً. إحساسك بالانتصار كلّما ربحت قضية. ثم الاطلاع على مشاكل الناس. إن مجتمعنا مليء بالمآسي.

أجلتُ الطرْفَ في عيون صديقاتي واحدة واحدة. كنّ ينظرن إليه بإعجاب إلا أن نظرات هيفاء كانت تختلف. إنها تلتهمه، وأحسست أنها تريد أن تكون سيدة الجلسة، فلعنتها في أعماقي، وقررت أن لا أسمح لها أبداً بزيارتنا بعد اليوم.

عادت هيفاء تقول:

ـ على كل حال أنا لم أقرر بعد. أنا أدرس الحقوق لأنه ليس في جامعتنا كلية للصحافة، وقد رغبت في أن أسافر إلى القاهرة لكن أبي لم يسمح لي، وكان له مثل رأيك، إن الصحافة مهنة الرجال لأنها مهنة المتاعب.

قال أبي ضاحكاً:

ـ أنا مازلت تاركاً لك فرصة التدرّب عندي.

صمت قليلاً ثم أردف:

ـ ستصبحين محامية مدهشة.

كانت هيفاء قد ارتاحت في جلستها وانحسر فستانها الأسود عن قسم من ساقيها البيضاوين. وردّت على أبي:

ـ شكراً يا أستاذ.. إن شخصيتك تجعلني أفكّر كثيراً في الالتحاق بالمحاماة.

ـ هذا إذا لم يخطفك شابٌ ما. أنت جميلة وسوف يتراكض الشباب حولك كالنحل.

والتفت نحوي قائلاً:

ـ أليس لها معجبون كثر يا حنان؟

هززت برأسي موافقة بينما بادرت هيفاء قائلة:

ـ ولحنان معجبون أيضاً. أنا أعرف أن الذين يتمنّونها بالعشرات.

ـ هذا يجعلني أفخر بإنتاجي.

والتفت أبي نحو مكان آخر.

ـ وأنتِ يا امتثال حدّثينا عن آمالك.

ـ أنا قنوعة جداً يا أستاذ. موظفة بسيطة في دائرة ما لأنني كسولة وأريد أن أرتاح سريعاً.

ضحكنا بينما كان أبي يسأل سوسن:

ـ وأنت ماذا يمكن أن تقولي لنا عن آمالك؟

لم تُجب سوسن للتوّ، وانتظرث لحظة ثم لحظة ونحن نترقّب جوابها، ثم قالت:

ـ أنا لست أطمع بشيء. أولاً أريد زوجاً وبيتاً وأولاداً. فإذا صادف أن كانت حالة الذي سينالني غير جيدة فسأعمل لأساعده.

قال أبي بلهجة مسرحية:

ـ يا له من طموح متواضع. وأنت يا رباب؟

ـ بكل بساطة، سأصبح صيدلية. أبي تاجر ويريدني أن أصبح تاجرة مثله، ولم أجد مهنة أقرب إلى مهنته سوى الصيدلة.

ـ ضمنًا الآن حسماً في الأدوية، إذا احتجنا إلى الأدوية. أناشِدُكنّ يا صديقاتي أن تبحثن عن صديقة تدرس الطب.

ضحكنا. وأخذت كل واحدة منا تصيح: سهام ستكون طبيبة... لينا... سلوى.

قاطعنا أبي صائحاً:

ـ إذا كان لكنّ كل هؤلاء الصديقات فابحثن عن صديقات متخصصات إذن. هذا أفضل.

فغرقنا في الضحك أكثر.

وكم فرحت عندما عاد أبي يتحدث عني:

ـ لكنّ حنان تتميّز عنكن قليلاً. إنها تكتب الشعر، وهذه هِوايتها. هل لكنَّ هوايات مختلفة.

شبكت هيفاء أصابع يديها على ركبتها، ودفعت بجسدها إلى الأمام ثم قالت:

ـ أنا أرسم يا أستاذ، عندي لوحات كثيرة. أخاف أن أطلع عليها أحداً.

ـ ولماذا؟

ـ ربما تكون لوحات غير جيدة.

ـ اسمعي يا هيفاء، لديّ خبرة في الأعمال الفنية. أطلعيني على لوحاتك.

ـ سأفعل يوماً ما.

ـ والآن هل ترسمين شيئاً؟

ـ أفكّر برسم لوحة عنوانها أمل.

ـ أمل؟

ـ أجل. أقصد أن هذه اللوحة تعبّر عن أمل كل فتاة.

ـ لم أفهم ماذا تقصدين؟

ـ أقصد أنني سأرسم رجلاً أضع فيه كل الصفات التي تحلم بها الفتاة.

صمت أبي قليلاً، بينما كانت بقية الصديقات منجذبات إلى الحديث. وأحسست أنه يسترق النظر إليّ، ولكنه قال أخيراً:

ـ هل ستخترعين هذه الصفات أم تبحثين عن نموذج؟

ـ سأبحث عن نموذج.

ـ ولكن أين ستجدين مثل هذا النموذج؟

ـ لو يسمح سيدي أن يكون هو نموذج هذه اللوحة.

شعرتُ بالغرفة تدور بي. كم هي وقحة وجريئة. تظاهرت بالوقوف ثم انسحبت مدّعية أنني سأصنع الشاي. ولكن كلمات أبي الأخيرة لاحقت أسماعي وهو يقول لها:

ـ يا شيخة، لا أستطيع أن أجلس طويلاً أمامك.

أشعلتُ النار «هيفاء جميلة. وأنت ابنته. هيفاء تستطيع أن تسعده. أنت مجنونة. ولكنه أبي. أريده لي وحدي. يجب أن لا يشاركني أحد فيه. مجنونة. إنه أبوك. أنت محرَمة عليه من عدة نواح، أولاً من أجل ذكرى أمك، ثم المجتمع والدين والناس، وإذا لم يكن من أجلك فمن أجله. تحبّينه. بدأت تفكرين به تفكيراً غير طبيعي، ستهدمينه إذا انساق مع عواطفك، فستضربين بسمعته عرض الحائط». ولكن من سيدري؟ هو وحده الذي يسعدني، فلا يهم بعد ذلك شيء. ولكن سأحرص على أن لا يسمع أي إنسان مني كلمة ما تتعلق به. وأمحسن؟ يجب أن أخفف من وجود أمحسن في المنزل. ثم أبقى أنا وإياه الليل كله، أحبه، أحبه، أحبه.

أحسست بيدي ترتجف وهي تصبّ أقداح الشاي. كنت مضطربة وخائفة، وازددت رعباً من أن تكتشف رفيقاتي السر في وجهي. حاولت أن أمسح من ذهني هذه المشاعر، وأن أكتم ما أحسّ به. فكّرت بهيفاء. هيفاء جميلة، وإذا صارت الأمور تعاكسني فلن تستحق أبي سوى هيفاء. لن أسمح له بأن يتزوج غير هيفاء. يجب أن أشجّعها على اللقاء به. يجب أن أشجعهما معاً على التلاقي ولا يحق لي أن أفكّر به، ليس من أجل أحد، لا المجتمع ولا التقاليد ولا الناس، بل من أجل

أمي. كانت أمي تحبني، وتحيطني برعاية خاصة.. بالعكس، يجب أن أعامل هيفاء بحب وعرفان. وإن كانت تصغره سناً، فهي تكبرني بعامين. «ولكنها لا ترتبط به بمثل ارتباطاتي، ولكن لا أستطيع أن أكتم ما أحسّ به. إنني أحترق من الداخل. أنا أحق الناس بامتلاكه. هو سبب وجودي، سبب سعادتي، سبب إحساسي بالدنيا فكيف أسمع لهيفاء أن تأخذه مني؟ لكن ما معنى هذا الحب الذي تحملينه؟ لا أعرف. لا أعرف. أنا أتعِب نفسي كثيراً. لأترك الأمور تجري على هواها. لا. يجب أن تكون إرادتك قوية. ضعي حدّاً لكل هذه الأمور. لن يرضى بعواطفك هذه، وقد يحتقرك فتسوء العلاقة بينكما إلى الأبد. ولكنه يعاملني بحنان، يعاملني كما لو أنه يشعر تجاهي المشاعر نفسها. أنا لا أخطئ في حَدْسي. لا، ربّما أنت مخطئة.. هو يعاملك هكذا لأنه يحبك فعلاً. أنت ابنته. ابنة المرأة التي أحبها وظل مخلصاً لها طوال الخمس والعشرين سنة الماضية. من أجل ذلك يعاملك هكذا. هو وحيد وأنتِ وحيدة جمعتكما معاً مأساة واحدة فكيف لا يعاملك هكذا؟ اتركي له هيفاء. شجّعيها. لديها القابلية لذلك. وهي اختيارك. وهي القريبة منه أكثر. أحاسيسك هذه يجب أن تخفيها. يجب أن تنغمسي في حياة الجامعة جيداً. قومي برحلات مع زملائك فلطالما حاولوا إقناعك ألف مرة

برحلة ما. غيبي عنه. ستحطمين مستقبلك وتحطمينه.. بالعكس.. يجب أن تهتمي به كأم فهو محروم من الأم، وكابنة على الأقل لأنك ابنته. لترسمه هيفاء، ولتجعل منه نموذجاً. هيا، هيا امسحي هذا العرق المتفصّد من جبينك. أعيدي ابتسامتك إلى وجهك وادخلي إلى الصالون بأقداح الشاي، مرحة، مليئة بالفرح.. وإياك أن يكتشف أحد ما يعتمل في صدرك».

حملت الصينية وخطوتُ نحو الصالون. «لابأس، هيفاء جميلة سأحبها، سأحبها».

وما إن فتحت باب الصالون حتى سمعت سوسن تصيح:

ـ أطلتِ علينا غيبتك يا حنان. هل تصنعين الشاي لأوّل مرّة؟

لكن أبي كان يشعل سيجارة تتراقص بين أصابع هيفاء. وكانت واقفة تكاد تلتصق به، فوددت تلك اللحظة أن أقذف بالشاي الساخن في وجهها وأشدّ شعرها وأشوّه عنقها بأظافري. إلا أنني تماسكت، ورحت أقدّم أقداح الشاي. «كان يجب أن لا أتركهم وحدهم.. ليتني طلبت من أمحسن أن تبقى حتى تُعدّ لنا الشاي وتقدم الكاتو. الآن أسرعي، أسرعي».

وزعت أقداح الشاي ثم عدت إلى المطبخ وجلبت الكاتو «لا. يجب أن تنتهي هذه الجلسة السخيفة. ما

زال يحاورها وتحاوره. لتكن هذه الجلسة الأخيرة.. إياك أن تسمحي لأية رفيقة بأن تدخل بيتك بعد الآن. أيتها المجنونة أنتِ فعلت بنفسك هذا».

فاجأتني امتثال:

ـ أين أنت يا حنان؟ موزّعة الفكر كأنك لست معنا.

التفت أبي نحوي. كان وجهه يشرق بالسعادة ولا أثر للحزن في تقاطيعه، وأحسست كما لو أنه عاد شاباً في العشرين.

همست:

ـ لا، لا. أنا هنا. أنت مخطئة يا امتثال.

قال أبي:

ـ تصنعين شاياً جيداً، كأنك قد صببت حبك لنا فيه.

قالت هيفاء:

ـ أجل. صحيح. عندما يحبّ الإنسان إنساناً ما يعتني به جيداً. أليس كذلك يا حنان؟

«أكرهك أيتها الحيّة. قُدتك بيدي لتهدمي سعادتي، سوف أشوّهك».

ـ آ، صحيح. ولكن صنع الشاي ليس فيه براعة. يغلي الماء ثم توضع فيه حفنة من الشاي وتخفف النار. ثم ينتهي كل شيء. فلا حاجة إلى هذه الفلسفة يا هيفاء.

رمقني أبي بنظرة عتاب. ندمت. أرجو من اللّهً أن لا يفكّر أنني تعمّدت إهانتها. عاد أبي ونظر إلى ساعته. ثم

وقف يستأذن:

ـ الساعة الآن السادسة والنصف. آسف جداً أن أترككن فلديَ موعد هام. على كل حال البيت بيتكن وحنان معكن.

وأخذ يصافحهن. ومن غير أن أشعر أخذت نظراتي تلاحق يده. وما إن استقرت في يد هيفاء حتى أحسست أنه ضغط عليها أكثر، وظلت يده في يدها وهو يهمس:

ـ سوف نراك دائماً يا هيفاء.

ـ طبعاً، طبعاً.

ـ أنا مستعد لأن أقف أمامك لترسميني.

ـ وأنا كذلك مستعدة. سوف أتفق وحنان على الموعد الأول.

ـ سيسعدني ذلك.

أخذت خطواته تبتعد بينما كنت أنا أتبعه حتى الباب. التفت نحوي، فقلت له:

ـ لن تتأخر! سأنتظرك.

ـ لا. سأعود باكراً.

وانحنى ليقبّلني على خدي فتعمدت أن أحرّك وجهي بسرعة فلامست شفتاه طرف فمي. وعندما أغلق الباب، كنت ما أزال أرتجف كأن سِلْكاً كهربائياً قد مسّني.

عدت إلى رفيقاتي. ابتدرتني هيفاء:

ـ أبوك هائل.

وقالت امتثال:

ـ ليت لي أباً مثله.

صمتتْ لحظة ثم تابعتْ:

ـ حقاً، إنه رائع..

أما رباب فهمست:

ـ لماذا الصيدلة؟ المحاماة فيها لذّة. أبوك لذيذ يا حنان.

وقالت سوسن:

ـ أتمنّى زوجاً مثله. إذاً لكان أغناني عن كل شيء وعشت ربّة بيت سعيدة.

عادت هيفاء تقول:

ـ يجب أن نعمل جميعاً لنزيل من أعماقه آثار الحزن. أليس كذلك يا حنان؟

رمقت هيفاء بنظرة تمنّيت لو تعرف معناها ثم قلت:

ـ أبي لم يعد حزيناً. لستُ بحاجة إلى مساعدة أحد. أنا وحدي أزلت آثار الحزن من حياته.

صمتت هيفاء، بينما صاحت سوسن:

ـ لقد تأخَّرنا.

وتواعدنا على اللقاء في الجامعة.

تأخّر. الليل طويل، وفراشي يحترق. متى يأتي؟ أخذت أعدّ من الواحد إلى الألف. واحد، اثنان، ثلاثة... دقّات قلبي تضايقني. أتقلب كالمحمومة. أضع يدي تحت الوسادة. أحسّ بجسده يلتصق بجسدي، يعتصرني كالليمونة... أضع لساني في فمه. أشدّه من شعره الناعم. أكاد آكله لقمة لقمة. أين هو الآن، وعدني أن لا يتأخر، أشعلت الضوء. الساعة الآن الثانية عشرة. تأخّر. لماذا يكذب عليّ؟ نزلت من السرير. المطر يهطل غزيراً في الخارج. بدأت أشعل كهرباء البيت كله.. الصالون، غرفة المكتب، الغرفة الأخرى. تجرّأت وفتحت غرفة نومه وأشعلت الضوء... يا للسرير العريض الناعم. هنا شهدت أمي أحلى لياليها. ألقيت بنفسي على السرير وأخذت دموعي تنساب دون أن أستطيع ضبطها. أين هو الآن؟ ليتني أعرف شيئاً عن حياته الخاصة، هل يقضي الليل عند امرأة ما؟

وراودني خاطر مرعب «هل تواعد على اللقاء مع هيفاء. تستطيع هيفاء الادّعاء أنها مازالت عندي، أين يذهب بها؟». وسرعان ما أبعدت هذا الخاطر عندما أخذت أبرّر الأمور: لا تستطيع أن تسهر حتى هذه

الساعة، وأبي لن يكذب. إذا هي لفتت نظره حقاً فسوف يلجأ إليّ أنا بالذات.

وأخذت أتقلّب في الفراش الدافئ. ولم أشعر بأي ضيق نفسيّ عندما تمنّيت اللحظة أن يحتويني فيها هذا الفراش إلى جانبه. التقاليد هُراء. الناس هُراء. الدنيا بأسرها هُراء. وحده يسعدني، وحده يملأ قلبي، يشدني من قبو فراغي، يأخذني إلى العالم الذي أشتهيه.. «كيف ألفت نظره؟ لمن ألجأ؟ ممن أطلب المعونة، صديقاتي؟ لا، لا. أحلاهن تطمع فيه. ليتني لم أتخذها صديقة، ليتني لم أجِئ بها إلى البيت. بعد اليوم لن أسمح لأحد غيري بأن يراه. وحدي أنا يجب أن أملأ عالمه، وحدي أنا يجب أن أكون قادرة على صنع كل ما يحبه. أنا أحقّ به فلماذا تأخذه واحدة غريبة. ولِمَ لا يحق لي؟ ثم من هو هذا الذي وضع قانوناً لهذه القِيَم فحرّم وحلّل. الحرام الحقيقي هو الشقاء. الحلال أن يصبح الإنسان سعيداً، وكيفما كان شكل سعادته، وبأية طريقة يحصل عليها... لا، سأحبه أكثر. وسأحرص على هذا الحب حِرْصي على نفسي، وسأحرص على سرّ هذا الحب لأن سره لذيذ ورائع، ولأنني مضطرة إلى الحفاظ عليه سأمتحن نفسي. لن يعلم بهذا الحب أحد، لأنه في نظرهم حرام وشاذ وجنون. أنا حرام وشاذّة ومجنونة. هو لي بكل رجولته، بكل روعته. لا أحد من الرجال

يشبهه، لا أستاذ الأدب العربي، ولا محاضر الاجتماعيات، ولا زهير الذي يتودد إليّ والعِلْكة في فمه، يتودّد إليّ وهو يرفع خَصْلة من شعره عن جبينه. أنا لا أحبُّ النساء ولا الذكور الذين هم على شاكلة النساء. أحبُّه هو. ولِمَ لا. أمي ماتت. أصبحت الآن هَباءً، رماداً. أنا ابنتها ولمَ لا؟ لماذا يحق للغريبة أن تفعل معه ما أحب أن أفعله أنا؟ ولِمَ لا؟ أنا، أنا وحدي التي ستضمّه إلى هذا الصدر العطشان، لينهل مني أنا سعادته، من شبابي، من أنوثتي. يستحق ذلك. سأبقى له أبداً، وهذه المرة سيكون سعيداً، ولن أموت قبله فأتركه يحزن كما تركته أمي عامين طويلين. سأمسح بأصابعي غبار الماضي عن جبينه الواهن، سأعيد النضارة إلى شفتيه اللتين تأكلهما السجاير وتمتصهما الكحول. لن أسمح له بأن يجلب إنسانة غريبة إلى هذا البيت الجميل. كل شيء أصبح لي وحدي، كل ما في البيت لي أنا. وأنا له وحده.

وضغطت على وِسادته «آه ليتك تستطيعين أن تنقلي له هذه المشاعر، ليته يستنشق فيك رائحة دموعي. كيف ستسمع مني؟ كيف ستكتشف في عيني صورتك الجديدة؟ أنت لست أبي. أنا متأكدة من أنك لست أبي. لو كنت أبي لما فكرت بك على هذا النحو. لو كنت أبي لكرهتك، لتضايقت منك وأنت تلقي عليّ أوامرك وإرشاداتك. غُمري ما سمعتك تسيء إليّ بكلمة.

عاملتني أبداً كأنك تنتظر اليوم الذي أحبك فيه. كنت إنساناً كاملاً، أنيقاً، دائم الابتسامة، دائم الحديث الرائع، كأنك توقِع بي. كأنك تكشف لي أحسن ما عندك. كأنك تشدّني إلى حبك شدّاً. عمرك ما حجبت عني شيئاً. عمرك ما رفضت لي طلباً. وكنت أبداً توفّر لي الجو الذي أحب، ولا تمر مناسبة دون أن تقدم لي هدية ثمينة. كنت تستمع إلى قصائدي كالمأخوذ، تعجبك الكلمات. كنتَ تعرف أنني لا أنظم الشعر كما ينظمه أمين نخلة، مع أنك تحب أمين نخلة، ولا كما يكتبه الأخطل الصغير أو عمر أبو ريشة، مع أنك تقرأ دواوينهما كلما خلوت إلى نفسك، ولا كما ينشده نزار قبّاني أو سعيد عقل، مع أنك كنت تتمنى أن أصبح مثل واحد منهما. ولكنك كنت تقول لي دائماً: «هذا شعر يا حنان. هذا شعر رائع». ولم أنسَ كلمتك عن قصائدي: «الشاعر ليس مهندساً ولا كاتب عرائض ولا نقّاش صخور. الشاعر أحاسيس يا حنان». من أين أتيتني يا أبي؟ أي عصفور ألقاك في فمي حبة قمح وأنا جائعة. أي غيمة نزلتَ منها مطراً على لساني وأنا ظمأى، وأي ربيع شكلك في شعري وردة وأنا في أبهى زينة، وأي إله صاغك أجملَ كلمة في قصائدي؟

خذني إليك. ازرعني في مرفئك صخرة تردّ عنك الموج. أو لأكُنْ ظلَّ صنَوْبرة تردّ عنك ريح الصحراء. أو

تعالَ إلى حِضني وليكن قلبي وسادتك كل ليلة.

أنت... من أنت؟

سأسمّيك باسمٍ جديد. سأخلع عليك ردائي. وألقّبك بفارسي. آه. كم أكره أن أناديك بأبي يا أبي. ليتني سألتها وهي على فراش الموت إن كنت حقاً ابنتك، إذن لاعترفت لي، وإلا لماذا سطوت أنت على مشاعري هكذا؟ لماذا جعلتني قنديلاً في يدك يشتعل عندما تريد وينطفئ عندما تريد؟ في الليل أنت وفي النهار أنت. في الكتب والصحف والمجلات أنت. في القصائد أنت. أما أحسَسْتَ يوماً أنك قصائدي وكلماتي؟ أم أنت تتجاهل؟

أين أنت؟ الساعة الواحدة. أين أنت؟ الساعة الواحدة وصدري يشتعل. الساعة الواحدة وأنا موزّعة وحدي في كل هذا المنزل. أين أنت؟ مع من أنت الآن؟ وأنا هنا مع وسادتك، مع دثارك، مع فراشك، مع أشيائك التي لها الحق فيك أكثر مني.

أين أنت؟

أناديك بكل ما في صدري من جوع إليك. أناديك بكل ما في حنيني وظمئي إليك. أناديك بكل ما في دموعي من حرقة وألم، بكل ما في أصابعي من توتّر وشوق.

أين أنت؟

أول مرة، منذ عامين، تتأخرا أم أنني ما شعرت بتأخرك إلا في هذه الليلة. هذه الليلة التي أتمنّاك أن تكون معي فيها أكثر من أي يوم مضى. هذه الليلة أتمناك في صدري. أتمنّاك على زندي. أتمنّاك على نهدي، على بطني. أتمنّاك بين يديّ، بين يديك..

أين أنت؟

ها هي خطواتك تقترب. يا إلهي، إنها خطواتك حقاً. آه. ماذا ستقول لي وأنا في غرفتك، لأول مرة في غرفتك. ها هنا كنت تجد أمي تنتظرك إذا تأخّرت. ستجدني أنا الآن. ماذا ستقول؟ هاأنت تفتح الباب، وها أنا على حافة سريرك، لا. أنت سكران يا أبي، يا فارسي، رائحة الكحول تنبع منك. عيناك غائمتان، كلماتك واهنة متعبة: «حنان»! أجل أنا حنان. «أنت سهرانة يا حنان؟» أنتظرك. «أنا آسف يا عزيزتي لكن الأصدقاء أبعدوني عنك. أنا آسف يا حنان». الأصدقاء؟ أكنت مع أصدقائك؟ «مع أصدقائي لأول مرة منذ رحلت المرحومة.. أنا أعتذر يا حنان. هل أنتِ ناقمة عليّ؟».

وركضت نحوه غير ناقمة: يا أبي الحبيب أنت يحق لك أن تعيش. ولكن كان يجب أن تقول لي. لقد قلقت عليك. لماذا كذبت عليّ؟.

وسقط فوق الكنبة. كان يلهث وقد بدا عليه التعب: «أنا لم أكذب عليك. أنا لا أكذب عليك يا حنان. إلا أنها

المصادفة. لا أكثر ولا أقل».

كانت الكلمات تخرج من فمه بصعوبة: «ساعديني يا حنان. أريد أن أنام». اقتربت منه. رائحة الكحول زكمت أنفي. حللت ربطة عنقه. كانت عيناه شبه مغمضتين وشفتاه منفرجتين. وضعت خدي على خده: «يا أبي أنت مُتعَب». لم يُجب. أخذت أفكّ أزرار قميصه. شعر صدره مدّني بقشعريرة لذيذة. عدت ووضعت خدي بالقرب من فمه. إنه يلهث. يلهث. خلعت رداء بِزّته. رفعت ربطة العنق. خلعت عنه قميصه. ارتمى رأسه على حافة «الكنبة». فككت أزرار بنطاله، هززته:«أبي ادفع جسدك قليلاً لأسحب البنطال، لم يردّ. جاهدت حتى سحبت بنطاله. فككت شريط حذائه ثم سحبت الفردة الأولى من قدمه، وسحبت الثانية، ثم سحبت الفردة الأولى من جوربيه، ثم الثانية. سحبت البنطال. عضضت على شفتي السفلى. إنه شبه عار. هززته باستمرار. سمعته يقول هامساً: «اتركيني. اتركيني قليلاً». أجبته بحنان: «تعال يا أبي إلى السرير. إنك لست مرتاحاً هنا». كرّر: «اتركيني أنا مرتاح». ردّدت: «لا. اتكئ عليّ وتعالَ إلى السرير أرجوك».

جاهد حتى وقف فتلقيته بصدري ومشيت به إلى السرير حيث وقعنا معاً يدي تحت عنقه ورأسي على صدره. جاهدت كي أدفع به إلى منتصف السرير من

دون أن أسحب يدي من تحت عنقه. تعبت كثيراً حتى استطعت بيدي الأخرى أن أردَ اللحاف على جسده. كان غارقاً في اللاوعي. كنت أرتجف وأنا ألتصق بلحمه. كان كالجثة. إلا أن تنفّسه وهو يضغط على صدري جعلني أشعر بأنني ملكت الدنيا. وراحت يدي الأخرى تتلمّس ظهره المبتلّ بعرقٍ غزير. ازددث التصاقاً به. كان يزفر في صدري، فأحسست كما لو أننا في مركب ما، وحيدين في بحر هائج، ينبع منه الاطمئنان رغم الأعاصير. يدي التي تحت عنقه لم أعد أحِسّ بها. أخذ قلبي يخفق كطير مذبوح. لكنني كنت ملتذّة ونشوة مخدَرة تسري في أعصابي. وازددت اندماجاً به. كان يتنفّس بسرعة. رفعث ساقي ورميتها على مؤخرته فانزلقت زكبثه بين ساقيَ. يا اللّهَ ما أروع الدنيا، وما أروع الحياة. ويا ليل لا تذهب، اغمرنا بظلمتك إلى الأبد، لا تدع النور يرانا. النور فضّاح. وأخذ تنفّس أبي يهدأ رويداً رويداً. كان بين يديّ كطفل صغير بين يدي أمه. وأحسَسْث أن سلاماً سحيقاً في البُعد قد أرخى سُدوله على أبي. ولم أنم. وتمنّيت لو أن شيئاً يحدث فنجمد هكذا إلى الأبد. لكن النور أخذ يتسلل كاللص من شقوق النافذة، فضغطت بكل ما أملك من قوة على يدي التي تحت عنقه حتى سحبتها، فأخذ الدم المتجمد فيها يخزني كالدبابيس. وأخذت أفكُ جسدي ببطء من

جسده حتى وجدت نفسي على الأرض، فوقفت وانسللت من الغرفة بينما كان النور يملأ جنباتها..

دخلت غرفتي واستلقيت على سريري وأنا في نشوة أخَاذة. وسرعان ما رحت في نوم عميق.

نهضت من فراشي في التاسعة صباحاً وكأنني نمت ليلاً طويلاً. قمت نشطة، وأصلحت من زينتي وأسرعت لأصنع له القهوة. وقبل أن أدخل المطبخ تفقدته. كان ما يزال نائماً فانتابني خوف مفاجئ «ماذا أنا فاعلة يا إلهي. كيف سيفسَر الأمر؟ هل سيحتقرني؟ كم أخاف أن يحتقرني. لابدَّ أنه كان ثملاً. وحتماً لم يشعر بشيء غريب. آه ليته يأتي كل يوم هكذا. هكذا! أريده حياً إلى جانبي أريده أن يعتصرني بيديه الاثنتين، أريد أن يمتص رحيقي وهو في كامل وعيه. إذا كان عليّ أن ألتصق به وهو ثمل فأنا أسرقه، آخذ سعادتي منه دون أن يدري. أبداً. أريد أن يعلم أنه وحده مصدر نشوتي وفرحي. أريد أن يعلم أنه وحده القادر على منحي الحياة، والآمال العريضة».

صنعت القهوة. «هذه المرة سيشربها في سريره. وسأكتشف في عينيه إن كنت قد أخطأت، وإن كانت عواطفي قد أزعجته». اقتربت. جلست على حافة السرير. مددت يدي ولمست جبينه. إنه ملتهب. خفت. وضعت صينية القهوة على حافة المِنضَدة الصغيرة وعدت إليه. وضعت يدي على جبينه، إنه يحترق.

أصابني رعب شديد. هززته «أبي، يا أبي، يا حبيبي» انفرجت أجفانه بضعف، ونظر إليّ. كانت عيناه غائرتين، ضعيفتين، قلت: «بابا أنت مريض. آه. قل لي ماذا بك؟». أخذت يده تقترب من يدي ثم شدّها إلى صدره ببطء، فاقتربت منه أكثر، همس: «حنان، منذ زمان طويل لم أشرب هكذا. اعذريني يجب أن تستدعي الدكتور فؤاد. ولكن لا تخافي. سوف يحل فؤاد المشكلة فوراً». ويبدو أنه لمح الرعب الذي ارتسم على وجهي، فأخذ يدي إلى شفتيه الجافّتين وقبّلها. لم أتمالك نفسي، فهبط وجهي على وجهه، وراحت شفتاي تقبّلان كل قطعة فيه: «أبي... يا حبيبي، عمري ما رأيتك ضعيفاً هكذا. أنا خائفة». «حنان يا عزيزتي. أنا بخير. ولن أحتاج إلا إلى بعض الحبوب يصفها فؤاد. أنقذيني واهتفي له فوراً».

تركته، وركضت نحو الهاتف. أخذت أدير الأقراص، واحد، تسعة، ستة يا إلهي، ستة. تسعة، رنّ، رنّ، رنّ. «ألو دكتور فؤاد، أرجوك أنا حنان، أبي المحامي عزت الشرابي، إنه مريض، حرارته مرتفعة جداً. إنه يريدك». قال الدكتور: «سآتي حالاً». عدت إلى أبي: «اطمئن سيأتي الدكتور حالاً». «اطمئني أنت. لا أشعر إلا بامتعاض في المعدة وبهذه الحرارة اللعينة. لا تخافي يا حنان، أعرف أنها أعراض بسيطة».

جلست إلى جانبه، وأخذت أمسح عرقه عن جبينه، ووجهه وعنقه، وكانت نظراته تلتهمني وأحسست فيها لأول مرة معنى جديداً. «حنان.. يا حنان. تعالي» وشدّني إلى صدره. أسلمت رأسي له، أخذ وجيب قلبه يقرع في رأسي كآلاف الطبول. ازددت خوفاً. «تعال يا فؤاد، أسرع بسيارتك. تعال أنقذ وحيدي في العالم، ليس لي سواه، سأموت إن حدث له شيء. سأحطم كل ما في هذا البيت، سأحرقه، سأحرق كتب القانون والشعر والتراث. ما الفائدة من كل هذا إذا رحل؟ سأشعل النار في كل مكان، سأجنّ، سأبتلع الأفاعي وأقتل الأطفال. احفظه لي يا ربّ، احفظه من أجل كَبْت شروري. من أجل خنق شيطنتي».

الجرس يقرع. ركضت. كان الدكتور فؤاد بوجهه المريح. سأل: أين عزّت؟

خطوت أمامه إلى غرفة أبي، وما إن نظر نحوه حتى صاح:

ـ ماذا أكلت البارحة يا عزّت؟

ابتسم أبي ثم همس:

ـ فؤاد حرارتي مرتفعة جداً.

ويبدو أن الدكتور فؤاد قد اعتاد سماع مثل هذه العبارات، إذ فتح محفظته الجلدية بهدوء، وأخرج ميزان الحرارة، وتقدّم من أبي ووضعه في فمه، ثم

تناول سمّاعتيه ووضعهما على أذنيه. جلس على حافة السرير، وعندما كشف الغطاء ضحك: «الدنيا شتاء وأنت نائم شبه عارٍ». التفت نحوي فأدرتُ وجهي نحو النافذة. تابع: «ربما أصابك برد. ولكن جوّ غرفتك طبيعي. بسيطة. لا أعرف عنك أنك مهمل. حياتك أشدّ انتظاماً من دقات الساعة. ما الذي حدث لك؟». ثم سحب الطبيب ميزان الحرارة من فم والدي، ونظر إليه وهو يمطّ شفته السفلى وقال: «إحدى وأربعون... بسيطة لا تخف». «يقول بسيطة، يبدو أنه واثق من نفسه أكثر مما يجب». وأخذ الطبيب يفحص جسد أبي في كل أنحائه، وراح يضغط بأصابعه على بطنه. كنت أشاهد ذلك تماماً من زجاج النافذة. وكانت الصورة المعكوسة ظاهرة كما لو كنت أراها بالعين المجرّدة، وظلت كلمته الوحيدة «بسيطة» تملأ سمعي. أرجو أن يكون صادقاً. ناداني الطبيب:

ـ حنان، أين منامته؟

تناولت منامة والدي من المِشجَب ورميتها على طرف السرير. عاد الطبيب يقول:

ـ اصنعي له فنجاناً من القهوة.

لم أتحرك. حدّقت في وجه الطبيب الميت التعابير. يا إلهي. لاشك في أنه اعتاد مثل هذه الحالات. عرف للتو ما يعتمل في نفسي، فهمس مطمئناً:

ـ «يا عزيزتي أبوك بخير». ثم ضحك وهو يقول: «سأضع له تحميلة وسأحقنه بإبرة فاخرجي أرجوك. اصنعي لي فنجان قهوة. أبوك بخير».

عاد الاطمئنان إلى نفسي. تناولت صينية القهوة وخرجت من الغرفة وسرعان ما لمحت صورة أمي في إطارها الأسود اللامع. بَسْمتها هي هي. تألُّق عينيها هو هو. عضضتُ على شفتي، ورفعتُ رأسي إلى الأعلى «احفظه لي يا رب. احفظه لي يا رب. أرجوك».

صنعت فنجان القهوة وعدت به مسرعة. عندما طرقت باب الغرفة لمحت أم حسن تدخل إلى الصالون فالتفت نحوها: «لا تحدثي ضجيجاً أرجوك، أبي مريض». وارتسم القلق على وجهها وسمعتها تدمدم بكلمات صرفني عنها صوت الطبيب وهو يطلب إليّ الدخول. قدّمت له فنجان القهوة، وفيما كان يأخذه قال مشيراً بإصبعه نحو والدي:

ـ اسأليه هل تحسّن؟

التفتُ إلى أبي بوجه ضارع وسمعت صوته أكثر نشاطاً:

ـ تحسّنت فعلاً يا حنان. ألم أقل لك إن الأمر ليس بذي أهمية.

قال الطبيب:

ـ اسمعي يا حنان، عزّت بحاجة إلى الراحة والحِمْيَة لبضعة أيام مع تناول هذه الحبوب التي سأكتبها لك، ثم يصبح بعد ذلك كالأسد. لقد أكثر من الشراب أمس وهو منذ زمن منقطع عن الكحول فأحدث هذا فوضى في معدته. الأمر بسيط كما ترين لكنه بحاجة إلى عنايتك، أنت بالذات. هل تستطيعين ترك الجامعة هذه الأيام الثلاثة؟

ـ طبعاً دكتور.. صحة أبي أهمّ.

ولمحت في عيني أبي هذا الوهج المفاجئ. وراح يردّد كلمات الشكر. قال الطبيب:

ـ أنت في أيد أمينة يا عزّت.

ومد يده بورقة بيضاء كتب فيها شيئاً.

ـ خذي واجلبي له هذه الحبوب؟

وأشار بإصبعه نحو عُلبة صفراء وضعها على المنضدة الصغيرة وقال:

ـ تحميلة من هذه كلما ارتفعت درجة حرارته.

وصمت قليلاً ثم أردف:

ـ الأمر واضح. أليس كذلك؟

ـ طبعاً يا دكتور واضح تماماً.

ـ اتصلي بي هاتفياً إذا احتجت إلى شيء. اتصلي بي يومياً لأطمئن منك على حالته.

ومد يده بفنجان القهوة هامساً:

ـ شكراً. قهوتك طيبة.

ثم لَمْلَم الدكتور فؤاد أشياءه ووضعها في محفظته. وفيما هو خارج التفت إلى أبي مداعباً:

ـ يا مجنون، لو كنت معك البارحة لما حدث لك شيء. ولكن لا بأس، كان ذلك بسبب خيانتك.

ضحك أبي. وسمعت كلماته تخرج أكثر نشاطاً:

ـ في المرة المقبلة ستكون بالتأكيد معنا.

رمقته بنظرة معاتبة عجلى فيما كنت أخرج وراء الطبيب، وإذا به يغمزني بعينه ممازحاً فلم تعد الدنيا تسعني.

وما إن أصبحنا في الصالون حتى قال الطبيب:

ـ هيّا ارتدي أي شيء وتعالي، سآخذك بسيارتي إلى أقرب صيدلية تجلبين منها الدواء وأعود بك إلى هنا. عيادتي ملأى بالمرضى الذين ينتظرون.

تناولت مِعْطَفي وأسرعت مع الطبيب إلى أقرب صيدلية، فأخذت علبة الحبوب وأعطيت الصيدلي ثمنها. ثم أوصلني الطبيب بسيارته إلى مدخل البناء ونزلت تسبق خطواتي أشواقي. وسرعان ما كنت جالسة على حافة السرير. وجدته مغمض العينين وقد بدا وجهه في اطمئنان ساحر. لمست جبينه فأحسست بانخفاض الحرارة انخفاضاً كبيراً. تركت حافة السرير وجلست على المقعد المواجه له، ورحت أتأمله وقد جمعت

راحتيَّ، ولملمت جسدي، وانحنيت قليلاً، في صلاة صامتة:

«ربّ، إن كنت عادلاً فلا تُصبه بمكروه. إن كنت كبيراً فلا تدع الألم يقترب منه. إن كنت إلهاً فاحفظه من كل سوء، إنه كل حياتي، كل آمالي، كل مستقبلي. لا تُفقدني إياه. سأكون أكثر عبادة لك لو حفظته لي...

يا ربّ خذ كل عمري وأضفه إلى عمره. ولكن دعني أعش معه قليلاً بسعادة وهناء.. ثم خذني بعيداً دون أن يراني، بعيداً تحت موجة ما، أو في رحلة عبر المجهول، بعيداً دون أن يعرف أحد ما الذي حدث حتى لا يعرف هو ما الذي حدث. ليكن غيابي عنه مجهولاً حتى لا يعود له حزنه. كفاه من الحزن عامان مريران. عامان تحت سقف الأشباح والذكريات. عامان وهو لا يجرؤ أن يحرّك شيئاً في المنزل. لقد تركت الراحلة ظلّها في كل شيء. استطاعت أن تأسره بظلالها كل هذه الليالي والأيام السوداء. وما إن استطعتُ أن أزيل بعض هذه الآثار حتى سقط. فاحفظه يا رب من السقوط مرة أخرى. إنه لا يؤذي أحداً، إنه يمنح الخير والعطاء لكل من يستحق الخير والعطاء. هو إنسان صالح يزرع في النفوس أبداً حب الإنسان. فإن كنت عادلاً يا رب فمثل هذا الإنسان يجب أن تشمله برعايتك، وتحيطه بعنايتك، وتغمر حياته برحمتك.

أنا الخطيئة. أنا الشيطان. وأنت أعلم أنه بريء من خطيئتي، فافعل بي ما تشاء. أستحق أن تفعل بي ما تشاء. أحاسيسي هذه سوف أخنقها. أعدك أنني سأخنق كل هذه المشاعر. سأطمرها تحت تراب لا يُفلَح، وتحت صخر لا ينهدم. أعدك يا رب أن أحرق إلى الأبد هذه الخطيئة التي تعتمل في صدري وتبث سمومها في أعصابي. أحبه. وسأحبه حب البنت الوحيدة للأب الوحيد. أحبه. وسأحبه حب الطفلة الصغيرة لربّ البيت الكبير. ولن أتعدى هذه الحدود أبداً. أعدك يا ربّ. عمري ما رأيته هكذا ممدّداً على فراش لا يستطيع الحراك. فلا تصبّ لعنتك عليه وأنا أحقّ بهذه اللعنة. ولا يهبط عليه غضبك وأنا اللعينة الشيطانة التي تستحق الجلد والتعذيب».

فاجأتني حركة منه، وكنت مسترسلة في صلاتي، فتوقف بي كل شيء. رفعت رأسي نحوه وكان مستلقياً على ظهره، فأدار جسده نحوي. كانت عيناه تحدّقان فيّ بحنان آسر. ثم همس:

- ماذا بك يا حنان؟

- لا شيء يا أبي. ولكن أنا قلقة عليك فاعذرني.

أشار بيده أن تعالي.

أسرعت وجلست على حافة السرير، فأخذ يدي وضغط عليها، ثم قال:

ـ حنان، كأن سحراً قد مسّني.

ـ قل لي يا أبي، زدني اطمئناناً.

ـ لا أدري. لقد زال الانقباض من معدتي ولم تعد كما كانت تتخبط. كأن شيئاً لم يحدث لي. فؤاد طبيب جيد. إنني مرتاح الآن.

قلت في نفسي: «شكراً لك يا رب، شكراً لك. سوف تجدني وفية لعهدي».

ـ شكراً للهً، ولفؤاد يا أبي. لقد أعدت لي الحياة.

ـ حنان، عمري ما رأيتك جَزِعَة هكذا.

ـ خفت يا أبي، خفت كثيراً.

ـ يا عزيزتي من أجلك سأعتني بنفسي بعد اليوم. تبّاً للأصدقاء. كنا نتدارس قضية مهمة ولكن زميلنا يوسف أبى إلا أن يُظهر كرمه، كيف لا ونحن في زيارته بمنزله، فجلب لنا أقداح الشراب الواحد تلو الآخر. ثم نسينا القضية وأخذنا نمزح. بل رحنا نتسابق من يشرب أكثر من الآخر. على كل حال لن أعيدها مرة أخرى.

ضحكت. وعادت إليّ عافيتي أيضاً.

همس:

ـ لم أتناول القهوة اليوم.

ـ لا. اترك القهوة الآن. سأصنع لك كأساً من عصير البرتقال.

وخطوت بضع خطوات فصاح بي:

ـ اهتفي إلى المكتب وأنبئي زميلي أنني متعب، وأنه لن يراني في العمل لبضعة أيام.

هززت برأسي وأنا أرمقه كطفلة مولَهة. وفيما كنت أقطع الصالون استوقفتني أم حسن هامسة:

ـ هل هو بخير يا حنان؟

ـ أجل، أجل إنه بخير. لا تدخلي عليه أرجوك. إنه نائم.

أخذت صحّة أبي تتحسّن بسرعة. ولم يمضِ يوم كامل حتى صار يجلس ويقرأ بعض الكتب والصحف. عادت النضارة إلى وجهه. عند الظهر، ناداني، فأسرعت إليه، قال:

- الفضل لك يا حنان. ولولا هذا الرعب الذي خيّم على وجهك لتظاهرت بالمرض أياماً أخرى.

- أبي، لا تمرض أبداً أرجوك.

- لقد اعتنيت بي جيداً. أتصدقين أنني أحسست بين يديك بأنني أعود طفلاً. تعالي اجلسي أمامي. أنا أيضاً أكره المرض وأكره كل ما يحيط به من زيارات، وتودّد كاذب في أكثر الأحيان، والاستلقاء في الفراش كل هذه المدة. مساكين هؤلاء الذين يضطرون أن يبقوا أكثر أيام حياتهم طريحي الفراش. وأنت صغيرة أصبتِ بحمّى كادت تودي بك. كم خفنا عليك وقتها. ولكن استطاع الأطباء أن ينقذوك. إلا أننا أنا والمرحومة لم نكن نفارق سريرك. وظللنا خائفين عليك حتى عدت إلى اللعب والصراخ والشيطنة. كنا نسمّيك الشيطانة الصغيرة. وكان يلذّ لك الإيقاع بين أخويك وبينهما وبين أمك من جهة وبيني وبينهم من جهة أخرى. ولكن كنا نكتشف

أنك تكذبين. الطفولة مليئة بالحياة يا حنان. كان لك عالمك الخاص، وكنت أشعر أنا ذاتي بهذا العالم. كنت أحرص كل الحرص على أن أزكّي فيك روح الحرية لتعيشي على النحو الذي تحببين.

تناول أبي سيجارة وأشعلها. وتمنّيت أن لا ينقطع حديثه، فهو يروي لأوّل مرّة على أسماعي شيئاً عن بعض طفولتي.

وتابع:

ـ كنتِ مشاكسة، ولديك غريزة التملك. ورغم أنني كنت أجلب لك من اللعب أضعاف ما أجلبه لأخويك فقد كنتِ دائماً ترغبين في امتلاك لعب أخويك. وكنا دائماً نجد عندك كل الأشياء التي كانت تخصّهما. اسمعي، سأقص عليك هذه القصة المدهشة: ذات يوم فوجئنا بك أنا وأمك ونحن في وضع غير مناسب، وتوالت أسئلتك على أمك: «ماذا تفعلان يا ماما؟». قالت لك: «أقبّل بابا. أنا أحبه». قلتِ أيضاً: «وأنا أحبه» فأجابتك أمك مازحة: «أنا أحبه لأنه لي. وأنت يجب أن تحبيه لأنه ملك أمّك. أنت عندك لعبك وعندك تسلياتك. وأنا عندي أبوك». هززت رأسك يومها كالكبار الذين يتوعّدون. ولم تمضِ ساعات، ويبدو أنك استغللت وجود أمك في المطبخ، حتى جئت إليّ. كنت في مكتبي أدرس بعض القضايا ولاحظت أنك تتسللين إلى

الغرفة تسلّلاً. اقتربت مني. وصعدت إلى حضني وعانقتني، ثم سمعت كلماتك: «صحيح أنت لماما يا بابا؟» قلت لك: «طبعاً. طبعاً يا عزيزتي». وفجأة انسابت الدموع من عينيك. حاولت أن أحد من بكائك. لكنك قلت: «بابا، أنا أريدك أنت، ولتأخذ ماما كل لعبي. أريدك أنت وحدك». فأجبتك: «ولكن أنا ملك ماما. لقد اشتراني أبوها من العبد الأسود ووهبني لها إلى الأبد. وأنتِ عندما تكبرين قليلاً سأشتري شاباً يصبح لك إلى الأبد». لكنك قاطعتني صائحة: «أريدك أنت، أنت. لماذا لا يشتري جدي واحداً آخر مثلك ويعطيه لأمي؟». قلت لك: «لأن الشرطة ستأخذه إلى الحبس إذا اشترى لها رجلاً آخر. لا يحق للمرأة الواحدة إلا رجل واحد». وقلت: «ولكن يا بابا، أنا أحبك كثيراً. ليس لي أب سواك ليشتريك لي». وهمست لك: «حنان يا صغيرتي. سوف تأخذك الشرطة وتحبسك إذا علمث أنني صرت لك». وقلتِ: «من الذي سيقول للشرطة ذلك؟ أنا سأخبّئك في صدري ولن أقول لأحد إنك صرت لي... أنت هل ستقول للشرطة إنني سرقتك من أمي». وهمست لك وأنا أداعب خصلات شعرك: «أنا لا أحب أن يأخذك أحد إلى الحبس». قلتِ وقد تصنعت أن تظهري بمظهر الكبار: «إذن اتفقنا. يجب أن تصير لي. لا تقل ذلك لأمي.. سألعب معك في غيابها». وفجأة أطبقت بشفتيك على

شفتيَ كما شاهدتِ أمك تفعل قبل ذلك تماماً. وأبعدتك عني. ولعنت شيطنتك وطفولتك، وتلك الأحاسيس العجيبة.

ومنذ ذلك الحين صرنا نشعر أنا وأمك بأنك تراقبيننا باستمرار وأن نظراتك تلاحقنا أينما كنا. واكتشفنا أنك صرت تتلصّصين على أحاديثنا وخلواتنا. فقلنا في ذلك الحين إنك لا شك فتاة عجيبة تتصرّفين تصرّفاً غريباً. وطلبت مني المرحومة يومذاك أن نتركك تفعلين ما تشائين وأن نحرص حرصاً شديداً على أن لا تضبطينا في وضع ما... قالت المرحومة: «اتركها. عندما تكبر ستنسى، وستهتم بأشياء أخرى». ولكنك ظللت تلاحقينني، وصرت تعاتبينني كثيراً إذا اهتممت أمامك بأمك.. كنت تهمسين في أذني: «أنت صرت لي. سأقول لماما إنك تقبّلني من فمي إذا عدت مرة ثانية ورأيتك تهتم لطلباتها. يجب أن تهتم لطلباتي وحدي. لقد صرت لي».

ومنذ ذلك الحين صرت أخاف عليك. أتصدّقين يا حنان أنني لم أتخلص من هذا الشعور إلا بعد رحيل أمك عنا. فمنذ عامين فقط، ومع أنك صرت شابّة، لاحظت أن مراقبتك لي قد ذهبت عنا نهائياً.

وصمت أبي قليلاً. وصرت أنا كريشة ترتجف في مهبّ الريح. وحاولت إخفاء اضطرابي فقلت لأبي:

ـ قصة مدهشة. هكذا تماماً يا أبي؟!

ـ أجل يا حنان. كنت حقاً عجيبة. لك بعض طباع أبيك. أنا مثلك. إذا أحببت شيئاً أرغب في امتلاكه مهما كان الثمن.

وأردت أن أشعره بأنني تقبّلت هذه القصة بنيّة حسنة، فقلت:

ـ على كل حال لكأن القدر يساعدني على ذلك. ها أنت لي وحدي.

ورمقني بنظرة قاسية، ثم قال:

ـ أتشمتين بموت أمك؟

وفوجئت:

ـ يا أبي، يا كل حياتي، لا تسِئ الظن بي. أنا لا أقصد ذلك أبداً. إذا كنت حقاً قد حاولت وأنا طفلة أن أسرقك من أمي فأنا شريرة وشيطانة. لكن أمي ذهبت الآن. وصار من حقي أن تكون لي. أنا لا أريد لامرأة غريبة أن تأخذك مني. كما لن أسمح لرجل غريب بأن يأخذني منك. عشنا معاً كل هذه السنين. نشأتُ على ركبتيك. أحسستُ بآلامك وأحسَسْتَ بآلامي. وبعد هذا كله يأتي هذا الإنسان الغريب الذي يأخذك مني أو يأخذني منك. أنا لن أسمح بذلك.

ورقّت نظرات أبي. ثم همس ممازحاً:

ـ يعني أنك لا تريدين أن أشتري لك شاباً تعيشين معه بقية عمرك.

ـ لا يا أبي. أنتَ اشتريت نفسك لي منذ القديم. أليس هذا ما اتفقنا عليه؟

هزَ رأسه مبتسماً.

فأردفتُ:

ـ ولن يقول أحدنا شيئاً للشرطة حتى لا يأخذونا للحبس.

فتابع هز رأسه موافقاً.

وفجأة، كأنَّ قوة هائلة جذبتني إليه، قفزت من مقعدي، وعانقته، وضعت فمي على فمه وأنا مغمضة العينين. لحظات ساخنة كانت نشوتي الأولى. ثم هربت خارج غرفته، وأنا مضطربة، متآكلة الأعصاب. ودخلت غرفتي وأغلقت الباب خلفي وأقفلته من الداخل واستلقيت على فراشي. عندئذٍ سمحت لدموعي بأن تنطلق بحرية.

أخذت أستعيد حديث أبي من كل وجوهه «هل تعمَد أن يروي لي هذه القصة كأنه يحذّرني؟ أم هو يشجعني! هل هي قصة حقيقية؟ إذا كانت كذلك فأنا سعيدة بها. يعني أنه أصبح لي فعلاً منذ كنت طفلة، منذ قبلته قبلتي الأولى. ولكن ما هو مقصده ليروي لي الآن في هذا اليوم بالذات؟ هل شعر بأنني ألصقت جسدي

بجسده الليلة الماضية فأراد أن يحذّرني دون أن يشعرني بأنه صار يعرف كل شيء؟ هل ضغط على أعصابه وعلى نفسه ليوهمني أنه نائم فعلاً؟ وأنه ثمل إلى حد الإغماء فعلاً؟ لا. لو كان هكذا لكنت عرفت، لكنت أحسست أن الحياة تدبّ في أوصاله. كان شبه ميت. كان فاقد الشعور والإحساس تماماً.

ولكن... هل حدّد توقيتاً معيّناً ليروي لي قصة الطفولة هذه؟ إذا كان الأمر كذلك فلماذا اختار هذا اليوم بالذات ليقصها عليّ؟».

وخامرني شك لذيذ.

«يا إلهي. ربما هو يحس بمثل ما أحس به. ربما هو يمنحني مشاعره بالسرّ كما أمنحه مشاعري بالسرّ. ربما هو لا يجرؤ كما أنا لا أجرؤ. ربما يشعر بالحرج، مثلما أشعر أنا بالحرج، وأراد أن يمتحن حقيقة مشاعري. ولكن لو يعلم أنني كنت أجرأ منه، وأنني لاحقته منذ كنت طفلة في العاشرة، أي أنني منذ وعيت الدنيا أردته لي. قبّلته. جلست في أحضانه. وأخيراً تجرّأت أكثر فأكثر واندسست إلى جانبه وهو شبه عارٍ. ألصقت جسدي بجسده، عانقته. لففت ساقي على ساقه. تركت ركبته بين فخذيّ. كنت جريئة أكثر فقبّلته في فمه قبل لحظات. فلماذا بعد كل هذا أنت خائف يا أبي؟ تعال إليّ. قم. تعال. أسمعني خطواتك. اطرق باب غرفتي

أفتحه لك فوراً. وسنستلقي معاً على هذا السرير لتطفئ لهيب هذا الجسد المحترق. أما تراني أتلوّى كالأفعى التي وجدت نفسها فجأة فوق حطب يشتعل؟ تعال خذني بين ذراعيك وقبّلني.. قبّلني في كل أنحاء جسدي. كل لحم جسدي يشتاق إليك. يشتاق إلى أصابعك النحيلة وهي تتلمّس ظهري وعنقي وفخذي. تعال أيها الحبيب الوحيد. لن يرانا أحد. لن ترانا عين. لن تقول للشرطة أنت، ولن أقول للشرطة أنا. خذني بين ذراعيك ولأكن لك وحدي لعبتك المفضّلة، لعبتك الوحيدة. ثم إذا شئت حطّمني، اسحقني بقدميك، وألقِ بي من النافذة فوق كومة النفايات.

تعال يا أبي.

تعال.

كل ما فيّ يناديك أن تعال.

اضرب الباب بقدميك القويتين. وارتم فوق جسدي. أمسك كتفيّ بقبضتَيْ يديك وشدّني بقوة إلى صدرك.

خذ لساني. خذ شفتي بين شفتيك.

قبّلني، يا أبي، قبلني».

وصرت أتلوّى، محروقة الجلد والأصابع محروقة الأعصاب والشرايين، محروقة الأجفان والشعر والنهدين. فراشي يتلوّى تحتي فيمتلئ بالفوضى.

عيناي تتشبّثان بالباب. أرهِف السمع لعلَّ خطواته تقترب. لا شيء. الصمت يصرخ في أذني كالحرب الواقعة. الصمت يجرح خوفي. «ربما هو الآن يفكِّر في غير ما أعتقد أنه يفكِّر فيه. ربما دُهِش وفوجئ وأنا أضع فمي على فمه».

فجأة، أخذ قلبي يرتجف «إنها خطواته. خطواته يا إلهي أعرفها من بين ملايين الخطوات. أعرفها بطيئة جميلة، فيها الرجولة التي أحب».

جلست على حافة سريري، وتعلّقت عيناي وكل حواسي بالباب «سيقرعه الآن وسأركض فأفتحه وأشدّه إليّ. توقفت خطواته. إنها قريبة من بابي. يا إلهي، ربما هو يفكِّر هل يطرق الباب أم يعود أدراجه؟ ألهِمْهُ أن يقرع الباب، ألهِمْه أن يتقدم. تعال يا أبي تعال. أنا محترقة. أنقذني. تعال».

وضعت يدي على صدري. أنا خائفة. قلبي يهتز مثل عصفور صغير جريح. أمسكت به، كأنه في ضرباته يودّ أن يقفز من بين ضلوعي. ظل الباب مغلقاً. مات صدى الخطوات. لم يعد. لم يتقدم. لم يتحرك. أنفاسي تلهث متلاحقةً كالموج الذي تصفعه العاصفة. «اقترب يا أبي. اقترب. أتخيّل العرق يتفصّد من جبينك. أتخيلك مضطرباً كحصان برّي يقع في الفخّ لأول مرة، حائراً لا تعرف ماذا تفعل. أتخيلك كما أرى نفسي الآن، عيناك

مسمّرتان بالباب. هل تقرعه؟ تتساءل هل أفتح لك؟ سأفتح لك صدري أيضاً، وفراشي، يتدفق عليك نبع حناني. سأغمرك بقُبَل شوقي. سأمنحك أسعد لحظات حياتك. تقدم يا أبي. لا تخف. آه.. أنا سأفتح الباب إذا لم تقرعه أنت. سأترك لك فرصة صغيرة ثم سأركض وأفتحه. سأشدّك من قميصك إلى صدر غرفتي وسأقفل الباب. أنا سأعرّيك بيديّ هاتين. أم أنت مازلت حائراً خائفاً.

وتحرّك ظلُّه. يا إلهي. رأيته عبر زجاج باب الغرفة المغبّش. ولكن خطواته تبتعد. عضضت على شفتي. لقد انتصرت حيرته عليه فعاد.

تركت مكاني وأسرعت. فتحت باب الغرفة، وركضت نحو غرفته، فلم أجد أحداً. عدت إلى الصالون حيث لمحت أعقاب أكثر من عشر سجائر قد انطفأت فوق الرماد. يا أبي الحبيب.

ركضت نحو الشرفة، وأطللت على الطريق أبحث عنه. كان المطر يهطل عندما لمحت ظله وهو ينحرف في آخر الشارع نحو اليمين «إلى أين يا أبي، إلى أين؟».

عدت متعبة. دخلت غرفتي وأقفلت بابها، وسقطت من جديد فوق السرير. «المرة المقبلة سوف يجرؤ ويطرق الباب».

صرت خائفة.

ماذا كان سيفعل لو فتحت الباب وناديته؟ خروجه من البيت وهو مريض والسماء تمطر ليس طبيعياً. لا شك في أنه انزعج مني وإلا لقال لي إنه ذاهب.

إذا عاد، فكيف أواجهه؟ وإذا رمقني بقسوة فماذا أقول له؟ هل أتظاهر بالبراءة؟ هل أتظاهر بأن تصرّفي كان طفولياً؟

مضت ساعتان وهو غائب عن البيت. إلى أين ذهب؟ هل أتصل بمكتبه؟ قد لا يكون في مكتبه. «حاولي. إذا وجدته تعاتبينه كأن شيئاً لم يحدث». ركضت إلى الهاتف، أدرت أقراصه على رقم مكتبه وانتظرت طويلاً دون أن يردّ أحد. إلى أين إذاً؟ الدكتور فؤاد؟ هل من المعقول أن يذهب إليه؟ هما صديقان قديمان تخرّجا من الجامعة معاً. ولكن إذا لم أجده، فماذا سيخطر في بال الدكتور فؤاد؟ «احذري، إياك أن تضعي أباكِ موضع الشك بين يدي إنسان. لا، لا تهتفي إلى الدكتور فؤاد.. لعلّه عند أحد أصدقائه، عند يوسف مثلاً، يوسف الذي سهر عنده منذ أيام وكان سبب مرضه. ماذا سيقولون

إذا عرفوا أن ابنته تسأل عنه. هو مريض، كلهم صاروا يعرفون ذلك. «لماذا ترك المنزل وهو مريض؟».

إنه يعاني ما أعانيه. يشعر تجاهي بما أشعر به. يتمنّاني كما أتمنّاه. وهو يصارع ذاته، يقتتل مع نفسه. كما أصارع ذاتي وأقتتل مع نفسي. يهرب مني لأنه لا يريد أن يسقط في الحَمأة. لا يريد أن يلوّثني ويتلوّث. «عد يا أبي. أنا مجرمة، سيئة، مجموعة خطايا. كيف أعتذر إليك؟ شددتك إلى الدوّامة التي أنا فيها. من سيخلّص الآخر؟ من سينقذ نفسه وينقذ الآخر؟ أحدنا يجب أن يفعل شيئاً. أنا لا أستطيع. كلما فكّرت أن أبتعد عنك خانتني أعصابي. أحسّ قلبي يُذبح، يتشتّت. أشعر بذوار يخبطني من الجدار إلى الجدار، وتبتلعني أمواج كل البحار. أنا لا أستطيع. صرتَ حياتي كلها يا أبي. أنت تستطيع، ربما كنت قادراً على حلّ المشكلة. يجب أن أصارحك بكل شيء وأطلب منك الحل، وأعدك بأني سأخضع لحلّك مهما كان قاسياً. سأترك لك أن تتصرّف بمصيري. وحدك أنت الذي يحق له أن يتصرف بمصيري».

الباب يُفتح ويُغلق. لا شك في أنه هو. تركت غرفتي وأسرعت، صدق حدسي، إنه هو ولأول مرة منذ وفاة أمي يحمل زهوراً ويدخل بها إلى المنزل. حاولت أن

أكتشف في عينيه ما يدور في أعماقه. كان عادياً جداً. همس بصوته الحنون:

ـ لا تؤاخذيني، حنان، كنت متضايقاً. أنا لا أستطيع البقاء في مكان واحد طويلاً. وكان المطر لذيذاً. هل رأيت المطر عندما خرجت؟ كان يتساقط رذاذاً. ذهبت إلى مقهى قريب وجلست عند واجهته أتفرّج على الناس. أصدقك القول: كنت حزيناً يا حنان. لقد عاد إليّ طيف أمك فجأة. آه... تركتنا وحيدين.

فوجئت بحديثه. خطا بضع خطوات. ثم وضع باقة الورد على أحد المقاعد وصاح:

ـ أمّ حسن، أمّ حسن.

لكن أمّ حسن لم تجب. قال لي:

ـ ربما خرجت. الوقت متأخر. هاتِ لي وعاء الورد.

أسرعت وعدت بوعاء الورد وقد وضعت فيه بعض الماء. قال:

ـ كانت أمك تحبّ الزنبق والورد الأصفر. اشتريت هذه الباقة.

كان وجهه حقاً يتلوّى من الحزن. وقد حاول مراراً أن يتلافى نظراتي المنصبّة عليه. ثم همس مشيراً نحو صورة أمي:

ـ ضعي الورد إلى جانب هذه الصورة ريثما أخلع عني ملابسي. حنان، لو لم أر الصورة لظللت متناسياً.

مسكينة أمك.. لقد رحلت عنا باكراً.

بينما كان يتجه نحو غرفته، شعرت كم يحبّ أمي. خضعت لمشيئته، وفككت باقة الورد ثم وضعتها في الوعاء وحملته إلى جانب الصورة وتعمّدت أن أخفي بعض أجزائها بالورد. انتظرت خروج أبي. وعندما أطل عليّ واهن الخطى همس:

- حنان، اعذريني، يجب أن تكون أحزاني لي وحدي.

- ولكن أمي رحلت إلى الأبد. لا تتألم مني، أريد أن أحدثك بصراحة، يجب أن لا تتشبث بذكراها إلى هذا الحد. أنت ما زلت شاباً. حرام أن تعيش على الذكرى. لو كان كل الذين فقدوا زوجاتهم مثلك لكانت الدنيا في أسوأ حال. الحمد للهً الذي خلق فينا عادة النسيان.

ولم يجب للتوّ. رمقني بعينين متعبتين، ثم قال:

- تعالي إلى جانبي يا حنان.

أسرعت وجلست قريبة منه، قال وهو يضمّني من عنقي إلى جانبه:

- حنان، تغارين منها ميتة، كما كنت تغارين منها حية!.

فوجئت بهذه العبارات. اضطربت جداً. فإذا بأصابعه تلامس مكان قلبي:

- لماذا يخفق قلبك هكذا؟

كان في سؤاله خوف ظاهر. ثم أردف:

- ما الذي يزعجك يا حنان؟

ـ لا شيء يا أبي. لا شيء.

أخذ وجهي بين راحتيه وحدّق فيه.

ـ ماذا بك يا عزيزتي؟ أنت مضطربة.

لم أجب فمسح بإبهام يده تحت أجفاني.

ـ هل كنتِ تبكين؟

ـ لا. لماذا أبكي؟

بدا القلق على وجهه. ثم عاد ليلمس مكان قلبي. «لو يعلم المسكين أنه هو سبب اضطرابي، أم هو يتجاهل؟».

ـ حنان، عندما تشعرين بشيء غريب لا تخفيه عني. أرجوك.

هززت رأسي موافقة بينما كانت الأفكار تملأ رأسي. «لو كنت تعلم كم من الأشياء الغريبة تعتمل في صدري وأريد أن أبوح لك بها. أين فراستك؟ حدثتني كثيراً عن فراستك وأنك تعرف ما يعتمل في نفس أي إنسان ولو كنت تراه لأول مرة. أنا ابنتك، لي عشرون عاماً معك، ولا تعرف ما في هذا الصدر، ما في هذا الرأس من أفكار؟ أحبك، أتمنئاك، أريدك، ولا تعرف من هذه الأمور شيئاً أم أنت تتجاهل؟ قلبي يخفق لأنك بعيد عني رغم أننا في منزل واحد! متى تشعر يا أبي؟ متى؟».

عدت إليه. كان ما يزال يداعب شعري بأصابعه. ثم قال:

- ما رأيك... سنتناول العشاء معاً هذه الليلة، في مكان ما.

«هذه هي المرة الأولى منذ رحيل أمي التي يدعوني فيها إلى تناول العشاء خارج المنزل».

قلت:

- لا. يا أبي. ما زلت تتّبع تعليمات الطبيب. وعندما يسمح هو بذلك سأكون شاكرة لك أن تأخذني إلى أي مكان. أنا أشتاق أن أخرج معك ليلاً إلى مكان جميل نتناول فيه طعام العشاء على ضوء الشموع. اليوم؟ لا، بعد يومين أفضل! هل أنت جائع الآن؟

- بعض الجوع.

- لا بأس. سأصنع لك طعاماً خفيفاً. ثم عليك بالنوم باكراً. لقد أرهقت نفسك بخروجك تحت المطر. لو علم الدكتور فؤاد لأنّبني لأنني سمحت لك بذلك.

لمحت صحن السجائر، فتذكرت أعقاب السجائر العشرة التي تركها أبي قبل أن يخرج.. وددتُ لو سألته عن سبب اضطرابه لكنني خفت، فربَما كذب عليّ، ربّما قال لي: إنه تألَم لأن طيف أمي قد فاجأه، فآثرت الصمت.

سألني:

- حنان، هل تكتبين شعراً جديداً؟

تذكرت الكلمات الأولى التي يلوكها ذهني لقصيدة أنوي كتابتها. قلت:

ـ قريباً سأقرأ عليك قصيدة جديدة.

ـ أنا مشتاق إلى كلماتك الساحرة. قولي لي شيئاً منها الآن.

ـ لا أذكر إلا بضع كلمات. الأفضل أن أقرأها لك بعد أن أنتهي منها.

ـ لا بأس. ولكن قولي لي هذه الكلمات، فالمكتوب يُعرف من عنوانه.

صمت قليلاً. هل يعرف أنني أكتبها له؟ ثم نظرت في عينيه طويلاً.

ابتسم وقال:

ـ هل نسيت؟

ـ لا.

ـ هيّا.

ـ «رأيتك في الحلم طائراً يلفّني بجناحيه
رأيتك في الحلم
كالطفلة أنام على صدرك،
كطفلة تشمّها بحنان.
رأيتك في الحلم
حلواً كسكرة على لساني
يدي في يدك

والعالم كله على الشاطئ الآخر.
رأيتك تداعبني
أظافرك تهرش خلف أذني
تنساب على عروق عنقي
فأضمحِلُ وأذوب».

وأحسست أن الكلمات تنطلق جديدة، لم أفكّر فيها أبداً. تركتها تنطلق من أحساسيسي بارتياح:

- «ثم رأيت حلماً آخر يخطفك مني.
فصرت أركض وراء خطواتك
أحاول أن أمسك بك
فأراك من جديد بعيداً بعيداً بعيداً
يأخذك الفناء
تأخذك الذكرى
يشدك الماضي إلى الرماد».

صمت. كان ينظر إليّ بإعجاب واضح، ففرحت. كان مشدوداً إلي فمي، فشعرت بغبطة لا توصف.

- «لو أنك تحدّق في عينيَ
لرأيتَ فيهما عالماً ساحراً رسمته أنت
لو اقتربتَ من وجهي
لاستنشقتَ رائحتك في بشرتي
لو أمسكت يدي
لأحسَستَ كم هي باردة

وكم هي دافئة يدك.
لو وضعت خدّك على صدري
لسمعت قلبي
كم هو يناديك.
عشتُ صغيرة وأنا أحلم بك
عشت كبيرة وأنا أحلم بك
وسوف أكبر أكثر وأنا أحلم بك.
وعندما أموت..
سأغمض أجفاني أبداً
على حلمي بك.
وأنت، يا حسرتي
يأخذك الفناء
تأخذك الذكرى
يشدّك الماضي إلى الرماد».

أمسك أبي بيدي، وقرّبني منه أكثر. كان نشوان الوجه واليدين. وهمس بكلمات التقطتها بصعوبة:

ـ حنان، يا شاعرتي الحبيبة، اقرئي أيضاً، اقرئي مزيداً.

غمرني شعور فيّاض بأن نبعاً من الكلمات سيتدفق من أعماقي. وأحسست أنني أستطيع أن أتلو عليه ملايين الكلمات، فمشاعري تمدّني بطاقة لا تنتهي:

ـ «سيدي أنت وحبيبي، زوجي وعشيقي وأبي

خُلقت لك. وصرت منك وإليك.
وحدك عالمي
وكل ما هو خارج ملابسك لا أعرفه.
أتمنى أن أكتشف فيك كل شيء
ولا تهمَني المدن الجديدة
ولا المرافئ التي لم أرها
ولا البحار البعيدة.
كل ما أتمنّاه
أن تكون رحلتي الوحيدة أنت.
القطارات والمراكب،
المدن والآثار والليالي المضيئة
أنت.
عندما أعرفك جيداً
أكون عرفت كل شيء
وعندما أكتشف أعماقك
أكون مكتشفة الدنيا كلها.
وأنت يا سيدي
يأخذك الفناء
تأخذك الذكرى
يشدّك الماضي إلى الرماد».
وقاطعني:
ـ من هو هذا المجهول السعيد يا حنان. أنا أحسده.

ـ سوف تكتشفه في أعماقك.

وشعرت بدهشته، إذ ارتدَ قليلاً إلى الوراء وقد بدت الحيرة على وجهه.

فأسرعت محاولة إلقاء الستار:

ـ أقصد أن الذي سأحبه يجب أن يكون مثلك تماماً. ولذا فهذه القصيدة أكتبها لهذا المجهول كما لو أنني أكتبها لك.

اقترب مني، وعاد يضمني من جديد. هل انطلت عليه تبريراتي؟ كم أنا خائفة أن يستعيدني القصيدة فقد نسيتها.

لكنه أردف:

ـ أنت ابنة رائعة. أنا أسعد أب في الوجود.

ذهب أبي اليوم إلى عمله.

أنا سعيدة. لقد عاد إليه نشاطه. لم أتركه يذهب إلا بعد أن سألت الدكتور فؤاد، وفرحت عندما سمعته يقول:

«أبوك بحاجة إليك دائماً يا آنسة. لقد كنت ممرضة جيدة» وأردف:

«طبعاً يستطيع أن يستأنف نشاطه. لم يكن الأمر بذي أهمية».

ارتديت ملابسي، وذهبت إلى الجامعة. ماذا سأقول لرفيقاتي؟ في النادي لمحت هيفاء تقف ضمن حلقة من الشبان، وعندما رأتني أسرعت إليّ مرحّبة:

- أهلاً حنان. قلقنا عليك وقررنا اليوم أن نزورك. خيراً هل حدث شيء؟ حسِبْنا أن الأستاذ مريض.

- لا. أبداً. أبي لا يمرض. منذ وعيت الدنيا لم أره يشكو شيئاً. «يجب أن يكون أبي بالنسبة إليهن سوبرمان لا يصيبه مكروه».

- أنت إذاً؟

- أجل. كنت متعبة. أصابني رَشْحٌ قوي منعني من المجيء.

ـ في الواقع، لم نشعر بأنك غائبة عنا إلا يوم أمس فقررنا المجيء اليوم.
ـ أهلاً وسهلاً. على كل حال أنا مستعدة لاستقبالكن.
«لا. يجب أن لا أشجعهنّ».
ـ طمئنيني.. ماذا كان رأي أبيك فينا؟
ـ أنكن فتيات مهذّبات.
ـ إذاً سنراه اليوم أيضاً.
«المجنونة تريد أن تراه».
ـ أبي سافر في اليوم التالي لزيارتكن.
ولمحت في عينيها الأسى.
ـ يعني كنت وحيدة في البيت طوال الأيام الماضية.
ـ لست وحيدة تماماً. أم حسن كانت تعتني بي.
وتجرّأت هيفاء:
ـ لا حاجة إلى زيارتك في المنزل، ها أنا رأيتك هنا.. وسوف تراك بقية الشلّة.
«أجل. لا حاجة. أنت تريدين زيارتنا من أجله لا من أجلي وتتجرئين فتقولين ذلك بصراحة. لن تنعمي بعد اليوم برؤيته أبداً».
ـ آه. صحيح. كما تريدين.
اقترب أحد الزملاء منا وصاح بها:
ـ هيفاء تعالي. ننتظر بقية حديثك.

شدّتني من يدي. اقتربنا من حلقة الشبان، وهززت رأسي محيّية. أخذ الضجيج يعلو. ما أحببت هذا النادي منذ أصبحت جامعية. الضجيج الذي فيه كحمّام السوق الذي قطعت مياهه. انتبهت إلى أنهم يتحدثون عن أحد الأفلام السينمائية التي تعرض هذا الأسبوع ولكنني لم أفهم شيئاً. همست هيفاء في أذني:

ـ حنان، احضري هذا الفيلم ولا تدعي مشاهدته تفوتك.

ـ أي فيلم!

ـ «رجل وامرأة» فيلم فرنسي تعرضه صالة الكندي. إنه مدهش للغاية. أنا مستعدة لأن أحضره مرة ثانية إذا رغبت في أن تذهبي إليه.

ـ تعرفين، أنا لا أحبّ السينما.

ـ هذا الفيلم سيجعلك تحبّين السينما إلى الأبد. فيلم رائع. أرجوك اذهبي وشاهديه.

هززت برأسي. ثم نظرت إلى الساعة.

ـ هيفاء أنا آسفة، لقد حان موعد المحاضرة.

ـ ما هو الموضوع؟

ـ علم النفس وتربية الطفل.

ـ آه. هذا الأستاذ الغليظ.. دعيكِ منه. أقسم لك إن معلوماتك أكثر من معلوماته.

ـ لا.

ورفعت صوتي:

ـ أستأذن.

ولكن كأنْ لم يسمعني أحد. كانوا يناقشون طريقة عرض الألوان في الفيلم «هل يستحق المشاهدة حقاً؟ سأذهب أنا وأبي إليه».

ـ أنت مُصِرَة؟

ـ يجب أن أذهب.. منذ زمن لم أستمع إلى شيء عن هذا الموضوع.

ـ كما تريدين. عندما تنتهي هذه المحاضرة العظيمة عودي إلى النادي.

ـ لديّ درس آخر بعد الظهر.

ـ وأنا كذلك. كان يجب أن تنتسبي إلى كلية الحقوق لتصبحي محامية مثل أبيك. ما لك وللتربية.. ما لك وللأولاد.

انسحبت وأنا ألوِّح لها بيدي. «الملعونة، أبي يثير اهتمامها. ولِمَ تلومينها؟ أنت ابنته وأثار اهتمامك. أنت ابنته وتعشقينه كما تعشق امرأة غريبة رجلاً غريباً. أنت مستعدة لأن تمنحيه كل شيء، فلماذا تلومين هيفاء؟ بل على العكس يجب أن تحترميها وتحبيها لأنها تهتم به، ولأنها تسألك عنه».

دخلتْ قاعة المحاضرات، وجلست في أول مقعد فارغ صادفته، نظرت إلى الساعة. دقائق ويدخل

المحاضر «أين أنت الآن يا أبي؟ ما الذي تفعله؟ هل تدافع عن أحد أم تؤجل الدعوى؟».

دخل المحاضر. وقفنا. وصل إلى المنبر. رفع يده محيياً، ثم بدأ الكلام بصوت جهوري مرتفع:

- موضوع محاضرتنا اليوم «الطفل في عاميه الأوّلين»، إذ يُجمع علماء النفس على أن السنوات الأولى من عمر الطفل ذات أثر يكاد يكون حاسماً في تعيين شخصيته المقبلة، وتحديد اهتماماته العقلية، واتجاهاته الانفعالية. وذلك يبيّن لنا أن حياة الطفل في هذه السنوات لا يمكن أن تكون حياة بيولوجية صرفاً بل لابدَّ أن تكون عامرة بالعناصر الانفعالية والعقلية التي يخفيها عنا بُعد عهدنا بالطفولة، والفرق الشاسع الذي نلحظه بين تصرّفاتنا كراشدين وتصرّفات الأطفال البدائية. وبالرغم من أن الخصائص النفسية...

وخفتت الأصوات حولي. تذكرت كلمات أبي عن طفولتي. «الطفولة مليئة بالحياة يا حنان. كان لك عالمك الخاص. وأنا الذي شعرت بهذا العالم.

«كنت مشاكسة. ولديك غريزة التملك. ورغم أنني كنت أجلب لك من اللُعب أضعاف أضعاف ما أجلبه لأخويك فقد كنتِ دائماً ترغبين في امتلاك لُعَب أخويك، وكنا دائماً نجد عندك كل الأشياء التي كانت تخصهما.

«... ذات يوم فوجئنا بك أنا وأمك ونحن في وضع غير مناسب، وتوالت أسئلتك على أمك: «ماذا تفعلان يا ماما؟». قالت لك: «أقبّل بابا. أنا أحبه». قلت أيضاً: «وأنا أحبه». فأجابتك أمك مازحة «أنا أحبه لأنه لي. وأنت يجب أن تحبيه لأنه ملك لأمك»...

«ولكن أنت ذهبت الآن يا أماه.. هل ترغبين في أن تمتلكه بعدك امرأة غريبة، ألستُ أنا أحق بأن أرثه منك؟ أخواي ليسا بحاجة إليه، رحلا عنه مع امرأتين صغيرتين، أنا مازلت وفية له. أرعاه كما كنتِ ترعينه. أعتني به عنايتك به. ألا يحق لي أن أمنحه ما كنتِ تمنحينه إياه؟ أم نتركه هكذا يعاني الوحدة ويعيش مع ذكرياتك الميتة؟ لا أظنك حاقدة عليّ يا أمي. أنا أحفظه لك لأنني منك. ولن أسمح بأن تأخذه مني أي امرأة غريبة. لأنني لو سمحت بذلك فهي تأخذه منك أيضاً، من ذكرياتك معه، من السنين الطويلة التي عشتماها معاً. «أيتها الماكرة، أتحاولين أن تبرّري مشاعرك الشاذة لإنسانة ميتة. أنت حرام عليه وهذا يكفي. لكنك تحاولين دائماً أن تجدي منفذاً يجعل تملّكك له مشروعاً.

ولكن لنترك كل شيء جانباً، ولنكن واقعيين أكثر لنناقش الموضوع من كل جوانبه. أنا أحبه. ولنسمِّ هذا الحب ما شئنا من الأسماء: حب محرّم، حب غير مشروع، حب شاذ، لا يهم. ما دمت أحبه فعلاً وأتمناه

فعلاً فلماذا لا يكون لي ولا أكون له؟ لو أن باخرة غارقة قذفتنا وحيدين في جزيرة مهجورة وانقطعت عنا سُبل الاتصال بالعالم الخارجي، ماذا نفعل؟ أنا أشعر الآن بأننا معاً في جزيرة مهجورة. لأن كل هذا العالم يحترق خارج منزلنا».

«... و

دخول طالب إلى القاعة متلصصاً أعادني إلى المحاضرة.

ـ وعندما يتم التوافق الحسي الحركي يزداد الطفل قدرة على إدراك الأشياء المحيطة به. فالانتقال من رؤية الشيء إلى رؤيته والقبض عليه معاً إلى القبض عليه وتقليبه والعبث به إلى فحصه بأصابعه هو في الوقت نفسه انتقال في المعرفة من مرتبة دنيا إلى مراتب أعلى. وتحدث قفزة في المعرفة بظهور الزحف فالمشي لما ينجم عنهما من اتساع دائرة معارف الطفل في ميدان الأشخاص والأشياء على حد سواء. وعندما يكتسب الطفل القدرة والتعامل المباشر يطرأ تطور إدراكي جديد. هكذا تبدو لنا بوضوح وحدة النموّ وأنه لا صحة لما قد يتبادر إلى الأذهان من انفصال النموّ الحسّي عن غيره من نواحي النموّ الأخرى: حركية، وإدراكية وانفعالية، فالكل وحدة منسقة. والنمو حركة...

«يأخذك الفناء
تأخذك الذكرى
يشدّك الماضي إلى الرماد».

أليس هذا واضحاً لتفهم كل شيء يا أبي؟ هي تشدك. مازالت صورتها تُشعرك بأنها حيّة في هذا المنزل الحبيب. لم يبق لها سوى هذه الصورة ومع ذلك مازالت تنشر عليك ظلالها:

«لو أمسكت بيدي
لأحسَسْتَ كم هي باردة
وكم هي دافئة يدك».

ليست قصيدة، هذه الكلمات التي سمعتها مني. لم أكتب فيها حرفاً بعد. ولكنها مشاعري تجاهك أيها الأبله. إنك تغيظني بهذا التجاهل العجيب.

«سيدي أنت وحبيبي، زوجي وعشيقي وأبي
خُلقت لك. وصرت منك وإليك».

كيف تجرّأت وقلت له هذه الكلمات؟ ومع أنها واضحة كشمس النهار، فقد ظل يتجاهل مشاعري. وظل يستمع إليّ كأنه يستمع إلى قصيدة لم تُكتب له:

«كل ما هو خارج ملابسك لا أعرفه
أتمنّى أن أكتشف فيك كل شيء
ولا تهمّني المدن الجديدة
ولا المرافئ التي لم أرها

ولا البحار البعيدة».

«حقاً يا أبي لا أعرف شيئاً خارج ملبسك. أحسّ أن هذا العالم كله غريب عني وأنت وحدك الأقرب. وحدك الأقرب. ومع ذلك مازلت تتجاهلني. هل أنت خائف؟ أقسم لك لن أخبر الشرطة، أنت أيضاً لن تخبر الشرطة. سأطوي هذا السر أبداً بين جناحيّ يا أبي، يا حبيبي، متى تأخذني بين ذراعيك».

خرجت من القاعة مع بقية الزملاء ولم أفهم شيئاً من المحاضرة. نزلت الدرج حتى الحديقة. أخذت السماء تتلبّد، سيهطل المطر غزيراً، أسرعت نحو النادي. التقيت بسوسن وامتثال ورباب. اقتربن مني. قبّلتني سوسن على خدي:

ـ الحمد للهً على السلامة يا حنان. كنا سنأتي لزيارتك اليوم. أين هذه الغيبة الطويلة.

ـ لعن اللهً الجوّ وتقلّباته.. أصبت برشح فظيع.

ـ هيفاء توقّعت أن يكون والدك هو المريض.

وصحت غاضبة:

ـ ولماذا توقّعت أن يكون هو المريض. أبي لا يمرض أبداً.

ـ ولكن كان يجب أن تهتفي لواحدة منا. على الأقل كان يجب أن نتناوب العناية بك.

ـ شكراً يا سوسن. شكراً. فكرت في ذلك. ولكن خفت عليكن من الرشح، إنه أغلظ مرض يمر بالإنسان.

ـ لا شك في أن أباك قد أصيب أيضاً.

ـ لا. الحمد للهً. لأنه سافر في اليوم التالي لزيارتكن.

ـ إلى أين سافر؟

ـ له بعض القضايا في حلب. وسيزور أخي. وسيعرّج على اللاذقية ويزور أخي الآخر.

ـ ستطول سفرته.

ـ لا أدري. ولكن لن تكون أقل من أسبوعين.

قالت رباب:

ـ أنا ذاهبة إلى البيت. يجب أن أسرع قبل أن يهطل المطر.

قالت امتثال:

ـ هيا لنذهب معاً.

قلت:

ـ أنا سأبقى. سأتناول غدائي في مطعم الجامعة. لأن لديّ درساً مهماً بعد الساعة الثانية.

قالت رباب:

ـ طبعاً. الحق معك. مادام أبوك مسافراً فالأفضل تناول الطعام هنا.

سررت لهذا التفسير الذي لم يخطر في بالي. وفيما هن يودعنني فكرت: «حقاً سيتناول أبي الغداء وحده.

هل سيشتاق إليّ. سيفيدني هذا الغياب عنه لأمتحن عواطفه. هو يعرف أنني عندما لا أتناول الغداء في البيت أكون في مطعم الجامعة. لن يقلق.. ولكن سيشتاق إليّ بالتأكيد. وسيتضايق».

مرات كثيرة عندما تناولت غدائي في الجامعة أنبأني بضيقه. قال لي مرَة: «حين تكونين مضطرة إلى حضور درسين متقاربين في وقت الغداء أخبريني بذلك قبل حين، حتى أتناول غدائي في مطعم ما». لم أقل له إنني سأتناول غدائي في الجامعة. من فرط هوسي به نسيت مواعيد الدروس. ولم أتذكر إلا في الجامعة.

نظرت إلى الساعة. إنها تقترب من الثانية. لا بأس. سأهتف له بعد قليل إلى المنزل. وسأعتذر لأنني نسيت أن أخبره.

هبطت الدرجات إلى المطعم فوجدته مكتظاً بالطلاب، فآثرت أن أشتري سندويشة. بعد قليل صعدت الدرج وأنا أمضغ لقمة من السندويشة. أسرعت إلى كوخ الهاتف، وحرَكت أرقام منزلنا. انتظرت طويلاً حتى رُفِعت السماعة. سمعت صوت أم حسن.

- آلو.

- مرحباً خالتي أم حسن. ألم يأتِ أبي؟

- لم يأتِ بعد يا عزيزتي.

- سأتصل مرة ثانية. قولي له إنني في الجامعة.

أكلت السندويشة ثم عدت إلى الهاتف. هذه المرة سمعت صوت دافئاً على الهاتف:

ـ بابا، أعتذر. نسيت أن أخبرك أنني سأتناول غدائي في الجامعة.

وجاء صوته هادئاً حنوناً:

ـ هكذا يا حنان؟ تتركينني وحدي!

ـ سامحني يا أبي أرجوك. لن أتأخر. سأكون في البيت بعد الرابعة والنصف.

ـ كما تريدين. أشتاق إليك كثيراً..

ـ يا أبي، في المساء سنذهب إلى السينما، وسنتناول العشاء معاً.

ـ قبلت دعوتي أخيراً؟

ـ إلى اللقاء يا أبي. إلى اللقاء يا حبيبي الرائع.

ضحك، ثم همس:

ـ قرّبي خدك من الهاتف.

ولكن قرّبت فمي من السماعة. وحين سمعت صوت قُبلته أحسست بطعم ريقه على لساني.

خرجت من الجامعة.

كم أشتاق إليه. الليلة ستكون أول ليلة أخرج فيها معه، وحدي. وحدنا سنجتاز شوارع دمشق. وحدنا ستضمّنا أنديتها الليلية.

تطلعت إلى السماء. أخذ الغيم ينحسر. حتى الطبيعة تريد أن تشاركني فرحتي.

وصلت البيت في الساعة الخامسة. صعدت الدرج عصفورة تطير. لأول مرة كان شعوري أنني أركض إلى لقائي الأول مع من تحبه نفسي.

وضعت المفتاح في الباب، وفتحته ببطء. دخلت على رؤوس أصابعي. لفح وجهي دفء المنزل اللذيذ. أحسست كما لو أنه دفئه الخاص، دفئه الذي لا أجد له مثيلاً في أي مكان، رائحة سجائره وتبغه المعطر، هدوء أعماقه ووجهه وحياته. الآن سيأخذني بين ذراعيه. سيضمّني إلى صدره الواسع، صدره الملجأ، صدره المرفأ، صدره الأمان والسلام.

«يا حبيبي أين أنت؟».

أخذتني خطواتي إلى مكتبه، ودون أن أطرقه، لأول مرة، فتحت الباب عليه. كان واقفاً قرب النافذة ينظر

إلى البعيد. التفت نحوي وكان في كامل أناقته. كنت أعرف أنه سيفتح لي ذراعيه، فركضت إليه وألقيت بنفسي على صدره. ضمّني بقوة. سمعت ضربات قلبه تخفق كما لو أنه ركض مئات الأميال. فرحت. إنه مضطرب. سمعت همسه ضعيفاً:

ـ تأخرت يا حنان.

لم أجبه. أغرقت وجهي أكثر في صدره. شددت يدي حول ظهره، ولأول مرة استنشقت عطره المفضّل. افتقدت هذه الرائحة منذ ماتت أمي. أحسست الآن أنني انتصرت في أعماق أبي على ذكرياتها، وأنني أخذته منها نهائياً. لقد حان موعد إخفاء صورتها من الصالون إلى الأبد.

أبعدني عنه قليلاً ونظر في وجهي. بالتأكيد عرف أنني أسعد فتاة في الوجود فقد كان وجهي يتلألأ فرحاً.

قال:

ـ أنا تحت تصرفك.

نظرت إلى الساعة. كانت الخامسة والربع. قلت:

ـ لدينا بعض الوقت. سنذهب إلى السينما. ثم سألبّي دعوتك للعشاء. أنا سأختار الفيلم. وأنت ستختار المطعم.

هز رأسه موافقاً. ثم قال:

ـ هل اخترت الفيلم؟

ـ طبعاً يا بابا طبعاً. اسمه «رجل وامرأة».

أمسكت بيده قليلاً. ثم قلت:

ـ اسمح لي سأرتدي ملابسي. سأكون هذه الليلة سيدة.

ضحك. ثم همس:

ـ أنا سعيد بك يا حنان.

خرجت من مكتبه، وأسرعت إلى غرفتي. فتحت خزانة ملابسي واخترت طقمي البنّي الغامق ذا النقط الذهبية اللامعة. تناولت أحمر الشفاء ولمست به شفتي لمساً خفيفاً. ثم وضعت قليلاً من البودرة على خديّ. صرت جميلة أكثر «سوف تعشقني يا أبي» أنا متأكدة من ذلك. تطلّعت إلى عينيّ. كانتا بحاجة إلى بعض الكُحل فأخذت القلم ورسمت خطوط الكحل خفيفة رقيقة «صرت أجمل. ستفرح بي يا رجلي الوحيد». أخذت أكمل بقية زينتي. بعد قليل نظرت إلى المرآة. تناولت حذائي الأسود ذا الكعب العالي جداً «لابأس. سأصير طويلة مثله» ارتديت الحذاء. خطوت عدة خطوات أمام المرآة...

«امرأة جميلة. سألفت نظر كل العيون الشرهة. هل سيغار؟ هل سيحدِّق في هذه العيون بقسوة».

لم تعجبني تسريحة شعري إذ مازلت أبدو طفلة. رفعت شعري وجعلته كالتاج فوق رأسي. بدوت الآن أجمل. سيدة حقيقية. سيدة كبيرة في الثلاثين. هو في الخمسين ويبدو كأنه أيضاً في الثلاثين. لن نلفت النظر، وسنكون شخصين طبيعيين مثل أي سيدة ورجل في الدنيا.

أعدت ترتيب غرفتي. حملت محفظتي الجلدية الصغيرة. وذهبت إليه كالعروس. طرقت باب غرفته، ثم فتحته. لمحت عينيه المدهوشتين على ابتسامة فرحة. اقتربت منه بخطوات وئيدة. قال مادّاً يده لي:

ـ ما أجملك يا حبيبتي.

أمسكت بيده وضممتها إلى صدري. ثم همست:

ـ إنه مشواري الأول معك.. منذ عامين لم تأخذني إلى أي مكان. لأول مرة سنكون معاً دون ثالث. أنا فرحانة.

ـ كم سأتفاخر بك! كم أودّ أن أقول لكل الناس: هذه ابنتي!

لم أجب. حدّقت في عينيه قليلاً. ثم قفزت الكلمات مني:

ـ يا أبي. أنا تزيّنت هكذا حتى لا يخطر في بال أحد أنني ابنتك. أريد أن أشعر بأنك رجلي. رجلي الوحيد.

أدار وجهه نحو النافذة، ولم يقل شيئاً. بعد لحظات التفت:

ـ هيا بنا يا عزيزتي.

لأول مرة يفتح الباب ويمدّ يده مشيراً أن أخرج قبله. فرحت. انحنى قليلاً وأنا أخطو أمامه. كان رقيقاً وجميلاً كنجم سينمائي عظيم.

عندما صرنا في الشارع العام وقف. عرفت أنه يريد أن يأخذ سيارة أجرة.

قلت:

ـ لماذا السيارة يا أبي؟ الساعة السادسة، لدينا نصف ساعة لنمشي معاً. فالجو صحو كما ترى؟

ـ أخاف عليك من البرد.

رفعت ياقة معطفي وشددته على صدري ثم همست:

ـ لقد احتطت لذلك. لا تخف عليّ.

مشينا معاً. أمسك بيدي. صرت أسترق النظر إليه. بدا لي وجهه أكثر سعادة من أي يوم مضى. شعرت بالغبطة تملأ شراييني فتمنيت لو كانت لنا أجنحة فنطير معاً عبر العالم، نتنقل في كل الجزر الساكنة أوساط البحار. كانت خطواتي تتلاصق مع خطواته. بدأت أنتبه إلى العيون تشربني. حاولت أن أستشف من عينيه إن كان يغار عليّ. كانت يده تحتضن يدي، وراحت أصابعه تتلمس باطن كفي. صارت الدنيا لا تسعني. وددت لو أغني. لكن قلبي كان يغني. دمي وشراييني وأعصابي غناء لا مثيل له.

قال:

ـ أرجو أن يكون الفيلم جميلاً.

ـ أعتقد ذلك. لقد كانوا يتحدثون عن روعته في الجامعة.

ـ هل سنجد مكاناً..؟

ـ أظن. إنه أسبوعه السادس.

قال مندهشاً:

ـ أسبوعه السادس. هل هو فيلم هندي؟

ضحكت.

ـ لا يا أبي إنه فيلم فرنسي.

ـ آه. الأفلام الفرنسية.. قبل سنين طويلة حضرت فيلماً فرنسياً اسمه «المعجزة لا تقع إلا مرة واحدة». أتصدقين، مازلت أذكر حوادثه كاملة حتى الآن. كم كان رائعاً.

ـ يقولون إن «رجل وامرأة» أروع فيلم أنتجته السينما الفرنسية.

ـ لا بأس. منذ زمان طويل لم أشهد فيلماً سينمائياً. أرجو أن لا يخيب أملنا.

وصلنا إلى صالة السينما. كان شباكها مزدحماً بالناس. تركني أبي، ثم عاد بعد قليل وبيده بطاقتان. دهِشت. مسح دهشتي قائلاً:

ـ لا تعجبي. الأفلام الجميلة لها تجار آخرون. تجار صغار، أولاد، يقولون عنهم تجار السوق السوداء، يشترون البطاقات سلفاً ثم يبيعونها بأسعار أغلى من سعرها العادي. لا بأس. إنهم يوفرون علينا الوقوف في هذا الصف الطويل.

خطونا إلى داخل السينما. لم أكن أعرف أن صالة الجندي لها طابق علوي. أخذني أبي من يدي وصعد الدرج. وعندما أخذنا الدليل إلى مقعدينا أعجبني المكان. إن الطابق العلوي لا يكاد يتسع لأكثر من ثلاثين متفرجاً ويكاد يكون كل مقعدين في شبه عزلة. كانت مقاعده ملتفّة حول الصالة وكأنها في شرفة لأحد البيوت. عندما جلسنا شعرت كما لو أننا وحدنا، وكما لو أن الفيلم سيُعرض خصوصاً لنا من دون الناس جميعهم. قال أبي:

ـ منذ زمن لم أدخل هذه السينما. لقد أصبحت صالة جميلة جداً.

صمت قليلاً ثم أردف:

ـ الفيلم الذي حدّثتك عنه «المعجزة لا تقع إلا مرة واحدة» شاهدته هنا. كم كان رائعاً ذلك الفيلم. كانت بطلته «إليدا فالي» على ما أذكر، وربما كان «جان ماريه» معها. ليتهم يعيدون مثل هذه الأفلام بدل

ماشِسْتي، وذرَيد لخام، وهرقل، وكابور.. كابور أليس كذلك؟

ـ من هذا كابور يا أبي..

ضحك.

ـ آه، أنت لا تعرفينه. لعلّه أحد أبطال الأفلام الهندية.

أطفئت الأنوار. وبدأوا يعرضون الجريدة المصوّرة، ثم بعض المشاهد لأفلام قادمة. قال أبي هامساً:

ـ كم أكره في دور السينما هذه المناظر. ليتنا لم ندخل إلاّ بعد الاستراحة.

ـ لا بأس. مشاهد الأفلام المقبلة جميلة.

وعندما أُشعلت الأنوار أخرج أبي سيجارة، ثم همس مستأذناً.

ـ لن أغيب عنك طويلاً. سوف أدخّن هذه السيجارة وأعود.

وخطا خارجاً. ومن غير شعور تسلّلت يدي إلى مكانه الدافئ وراحت أصابعي تتحسّس المقعد المخملي الأزرق.

عاد بعد قليل. ثم أطفئت الأنوار. وأول ما أسرنا في عرض الفيلم البداية الموسيقية التي انطلقت من خلالها أغنية لا أجمل ولا أروع. وأخذت أحداث الفيلم تتوالى. كنت أرمقه بطرف عيني. كان مندمجاً للغاية. وعندما بدأ مشهد البطلين وهما يقومان برحلتهما الأولى تحت

المطر أحسَسْتُ بشوق إليه يمسّني حتى عظامي. تجرأت، ومددت يدي إلى يده، فأمسك بها بحنان ووضعها على ركبته ثم غمرها براحته الكبيرة، وتمنيت لحظتها لو بقى هكذا للأبد. كنت منتشية فيما راحت أحداث الفيلم تتوالى. أحسست بانفعالاته من خلال يده التي ارتمت على يدي. فرحتُ إذ وجدته مسروراً من مشاهدة الفيلم. وكانت بعض المشاهد تشدني إليها. ولكن سرعان ما كنت أعود إلى أحلامي بالرجل الذي ألتصق به. كان رأسي يستند إلى كتفه، وكانت السعادة ترفرف بأجنحتها حولي. شدّ على يدي في اللحظة التي أخذنا نشاهد فيها البطلين وهما عاريان في فراش واحد، كلاهما يتذكر أنه فقد حبيباً أخذه الموت منه.

فرحت كثيراً من هذا المشهد. إنه يخدم ما أسعى لأجله. إنه يخدم فكرتي في دفع أبي إلى نسيان أمي.

وأخذت أراقبه. كان ينظر إلى الشاشة مدهوشاً ومنفعلاً. فعدت أراقب المشاهد وأحاول أن أستشفَ ما سوف يثير اهتمامه. وكم سررت للنهاية التي خُتم بها الفيلم بعد هذا الصراع الطويل بين الذكريات وواقع الحياة، بين الماضي الذي مات والحاضر الذي يعاش. انتصر واقع الحياة على الذكريات. وانتصر الحاضر الذي يعاش على الماضي الذي مات.

خرجنا.

كان أبي صامتاً كأنه مازال يعيش داخل الفيلم. لمحت يده ترتجف وهو يحاول أن يشعل سيجارته، فخفت أن يكون الفيلم قد صدمه. وعندما ضمّنا ظلام الطريق لم أشأ أن أخترق جدار صمته. أمسكت بيده. اتجه نحو شارع المتنبي الهادئ. وحين جاورنا ثانوية التجهيز الأولى التفت نحوي هامساً:

ـ فيلم مدهش.

وابتدرته فوراً:

ـ هل أعجبك يا أبي؟

ـ رائع جداً يا حنان. شكراً لك. لقد جعلتني أقضي وقتاً ممتعاً.

ـ ما الذي أعجبك فيه؟

ـ إنه رائع بكل نواحيه، الإخراج والتصوير. ثم هذا الأسلوب في تقديم الألوان. الأحلام ملوّنة، والذكريات ملوّنة. ثم الواقع بالأبيض والأسود. ليلوش مخرج الفيلم ومصوره ومؤلّفه عبقري كبير.

ـ بابا، قل لي ما الذي كان يريد أن يقوله صاحب الفيلم.

ـ الحب. الحب الرائع الذي يلقي بمخلوقين كل بين ذراعي الآخر. ثم يباعد بينهما، ويمزّقهما، ثم يعيدهما ويسعدهما. لقد قدّم لنا صورة الحياة التي تنتصر دائماً، تنتصر حتى على الموت. الأشياء الحية أفضل من

الأشياء الميتة. فإذا كان الموت يمسك بيدنا يجب أن نمسك الحياة باليد الأخرى.

بعد صمت قليل، عاد يقول:

- أرأيت؟ لقد انتصرا على ذكرياتهما الميتة. وابتدآ مرحلة حياة جديدة. الحياة دائماً تجذبنا إليها يا حنان، لأنها الحس والرؤية، لأنها الشعور بالوجود الحقيقي.

«يا إلهي. ما أروع كلامه. يجب أن أحضر الفيلم مرة ثانية وحدي».

كنا قد اقتربنا من «الكافدروا». أمسك بي ودفعني أمامه، فولجنا المدخل الناعم. وسرعان ما بحث عن طاولة منعزلة قادني إليها عبر ظلام المكان المضاء بأنوار خافتة.

جلسنا، همس:

- هل انتبهت إلى طريقة التصوير بينما كان يتقدم منهما النادل وهما على شاطئ البحر؟

وكنت أريد أن أقول له: «شاهدت الفيلم فيك. كنت أنت شاشتي التي أحدّق فيها».

هززت رأسي. تابع كلامه:

- كانت الصورة تُعرض من خلال أعماق البطلين لا من خلال الكاميرا.. ولذلك كان يتقدم ويتقدم ولا يصل إليهما. كانا يرغبان أن لا يُشعرهما أحد بتقدّم الزمن. كانت خلجاتهما دقيقة. حتى من خلال خطوات النادل

التي لا تصل إليهما إلا بعد عناء طويل. في الحق إنه يستحق كل هذه الجوائز التي نالها. التصوير والإخراج، والقصة البسيطة اللذيذة في آن، والتمثيل، كل هذه الأشياء تصاعدت معاً نحو القمة، حتى وصلت دفعة واحدة إلى الذروة.

قلت ضاحكة:

ـ تصلح أن تكون ناقداً سينمائياً..

ـ هذا ليس نقداً يا حنان. إنه مشاعر. لقد تجاوبت مشاعري بالفعل مع كل خلجة في الفيلم.

«يا إلهي. متى تتجاوب مشاعرك مع كل خلجة في قلبي».

تقدّم النادل منا، فتمنيت فعلاً أن لا يصل إلينا ويتدخل في عزلتنا اللذيذة. وعندما انحنى همس له أبي أن يأتينا بويسكي وبيرة.. ذهب ثم عاد وهو يحمل زجاجة ويسكي صغيرة وزجاجة بيرة. «يا إلهي هل سأشرب معه».

قال لي:

ـ ستشربين بيرة، إنها لا تؤذي. ستشعرين بنشوة خفيفة وستكونين مبسوطة.

ـ ولكن أنا لم أذق خمراً في حياتي.

ـ يا مجنونة.. لن تؤذيك.

تركته يصبّ لي كأسي. ثم صبّ لنفسه بعضاً من الزجاجة الأخرى ووضع الثلج ثم صبّ الماء. وبعد أن حرّك كأسه قليلاً قرّبها من كأسي ثم رفعها وهمس:

- كأسك يا حنان.

ضحكت. تناولت كأسي ورفعتها، ثم رشفت منها رشفة كبيرة، فسعلت.

ابتسم. قال لي:

- بعد قليل اشربي بهدوء. خذي رشفة صغيرة، وهكذا...

فرحت. هل أنا أحلم. أول مرة أشرب. أول مرة أراه يشرب. نحن في ناد ليلي جميل. لا أحد ينظر نحونا. الطاولات التي بجانبنا فارغة. الطاولات البعيدة يشغلها نساء ورجال، كل واحد مهتم برفيقته. رجوت اللّهً أن لا يرى أبي أحد معارفه فيفسد سهرتنا. رجوت اللّهً أن لا أرى إحدى صديقاتي فتكتشف كذبي وتفضحني. رجوت اللّهً أن يحفظ لي هذا الإنسان الرائع، وأن يجعلني قادرة على إسعاده.

أخذت أشرب.

كان ما يزال يعيش أجواء «رجل وامرأة» فصار يحدثني عن بعض المشاهد بين الفينة والأخرى. ثم يرشف من كأسه قليلاً. مضى على جلوسنا وقت طويل، وقد شرب كل ما بقي من الويسكي. أما أنا فقد

أحسست بنشوة جميلة. وانفرجت أمامي الجدران عن سماء فسيحة مليئة بالنجوم. همس:

ـ جعتِ؟

هززت برأسي. فصفَق. تقدّم النادل فطلب لي فروجاً مسحَباً، وطلب لنفسه لحماً. كما أكد عليه أن يجلب زجاجة ويسكي أخرى وزجاجة بيرة أيضاً.

حاولت أن أوحي إليه أنني لم أعد أستطيع أن أشرب، فلم يلتفت نحوي. ومضى الخادم بعيداً. قلت:

ـ يا أبي أنا دايخة.

ضحك:

ـ يجب أن تكوني سعيدة هذه الليلة. سعيدة جداً. إنه عشاؤنا الأول.

ـ يعني أنك ستأتي بي كثيراً إلى مثل هذا المكان.

ـ طبعاً يا عزيزتي. كلما رغبت في ذلك.

عاد الخادم بما طلبناه. أخذ أبي زجاجة البيرة وصبّ لي قدحاً جديداً، ثم صبّ لنفسه من الويسكي ورشف قليلاً. بعد لحظة اقترب من أذني هامساً:

ـ هل ترقصين؟

هززت رأسي موافقة، فأخذني من يدي ومضى بي إلى رقعة الرقص. طوّق خصري بيد، وأمسك يدي باليد الأخرى، ولم أتمالك نفسي، فألقيت بجسدي على صدره. كانت الموسيقى ناعمة وكان يدور بي في حنوّ. وكثيراً

ما غرز ذقنه في شعر رأسي فأحسست أننا جسدان فائران يفصل بينهما بركان. واقتطعني من أحلامي ورقةً يابسة حين همس:

ـ تعالي. لقد جاء العشاء.

التهمت طبقي كالعصافير الجائعة. أمّا هو فلم يأكل إلا قليلاً. قلت:

ـ بابا، لم تأكل.

ـ عندما نكون في مثل هذا المكان لا تقولي بابا. قولي عزّت.

فوجئت. «ها هو يعطيني الحق الذي تمنيت أن أناله قبل زمن طويل. هاهو يطلب مني أن أناديه باسمه المجرّد. ما أروعك يا عَزت».

ـ عزت، يا عزت الحبيب. لم تأكل.

ـ لست جائعاً مثلك. الويسكي تصدم. البيرة تفتح الشهية.

صبَّ لي قدحاً آخر. ثم قال:

ـ هل تشعرين بانزعاج؟

ـ أبداً. إنما أنا «دوخانة».

ضحك.

ـ ما أجملك وأنت ثَمِلة يا حنان. حقاً إنك سيدة جميلة.

ـ أنت سيدي. ضمّني إليك.

حدّق فيّ لحظات، ثم قال:

ـ نحن في مكان عام يا حنان.

«هل ستضمّني إذاً عندما نذهب إلى المنزل؟ هل ستأخذني بين ذراعيك وتقبلني؟ تقبّلني، تقبلني ولا تشبع؟».

ـ يا أبي، عفواً يا عزت، خذني إلى البيت.

ـ لن نذهب قبل أن تشربي بقية الزجاجة.

ـ كما تريد. ولكن ستحملني حملاً. أنا أشعر بأني لم أعد أستطيع المشي.

ـ لا تخافي. سأحملك.

مضى وقت آخر. ثم أخذت الأشياء تتلاشى أمام عيني. وصرت أراه أمامي كغبش يهتز اهتزازاً مضنياً.

ـ عزّت. يا عزّت. أريد أن أذهب إلى البيت.

لفحني في ما بعد هواء الشارع البارد، وشعرت بالإسفلت يدور بي. ولكن سرعان ما ألقيت نفسي في صدره الدافئ وخيّل إليّ أن السيارة تنهب بنا الأرض.. وعندما وصلنا إلى البيت شعرت بأن خطواتي غير متّزنة. وكان هو يضحك مداعباً:

ـ أيتها السكرى الصغيرة، ما ألذّك.

كان يضمّني إلى جنبه. وكنت متعلقة به بكل ما أوتيت من قوة كأنني أخاف الغرق. دخل بي غرفتي. وأجلسني على حافة سريري. ثم ركع على ركبتيه أمامي

وخلع حذائي من قدمي، ثم نزع من ساقيّ جوربيّ. وعندما وقف أدرت له ظهري فخلع عني ردائي، ثم سحب سحّاب فستاني وشعرت بأصابعه تلمس ظهري، فغامت الدنيا. وامتلأ رأسي بالرعد والبرق. كان جسدي يرتجف. ثم فقدت إحساسي بكل شيء.

في الصباح، شعرت ببصمات أصابعه على جسدي، وكنت عارية إلا من ملابسي الداخلية. وغمرني شعور بالارتياح.

قال لي اليوم، وأنا أقدِّم له قهوة الصباح:

- حنان، سنزور الدكتور فؤاد في المساء. فؤاد انتقل إلى شقته الجديدة. مضت شهور خمسة وهو يصنع ديكورها وفرشها الجديد وغرف نومها ومكتبتها. اتفقنا اليوم على أن نزوره معاً.

- وما الذي سيفعله بشقته القديمة؟

- ربما سيؤجِّرها مفروشة.

- كما تريد يا أبي.

- هي على كل حال زيارتنا العائلية الأولى منذ وفاة أمك. كنت شيطانة. كنت لا تحبين الزيارات العائلية.

- حتى الآن أنا لا أحب الزيارات العائلية.

- ولكن أنت الآن مجبرة. في القديم كانت أمك المرحومة تحلّ هذه المشكلة دائماً. لأن لها جَلَداً على الثرثرة ومجاملة الأخريات. أنت الآن سيدة البيت يا حنان. ويجب أن أعاود نشاطي الاجتماعي. الطبيب والمحامي بحاجة دائمة إلى نشاط اجتماعي لأنهما لا ينجحان في عملهما إذا لم تكن صلتهما بالناس وثيقة.

- أين بيت فؤاد الجديد؟

- في منطقة المالكي.

ـ كما تريد. متى سنذهب إليه؟

ـ مساءً بعد التاسعة. سنلتقي أولاً في عيادته. ثم سنذهب بسيارته إلى البيت. فأنا لا أعرف بيته الجديد بعد.

ـ وهل ستطول سهرتنا عنده؟

ـ لا. سنبقى الوقت الذي لا يزعجك. ولكن أعتقد أنك ستحبين زوجته، إنها جميلة ولها صوت آسر.

ـ أعرفها يا أبي. ولكن هل تغنّي؟

ـ كفيروز تماماً. لطالما غنت لنا أغنياتها الجميلة، وكم كانت أمك تطرب لها. «احترت، مهما حاولت إخفاء آثار أمي أجد ثمة آثاراً جديدة تنبع في مكان آخر».

ـ لا بأس يا بابا. سنذهب.

في الساعة العاشرة لم أذهب إلى الجامعة. ذهبت إلى السينما وحضرت من جديد فيلم «رجل وامرأة» وأخذت أقلب في ذهني المشاهد التي لفتت نظره. كان البطلان في مأساة حقيقية، كلاهما يحب شريكه. وكلاهما أنجب من شريكه الحبيب ولداً. والولد أشدّ آثار الشريك الراحل التصاقاً بالشريك الحي. ومع ذلك يتجاوزان كل هذا. ويلتقيان أخيراً وقد صبّ كل منهما حبه القديم في وجه حبّه الجديد.

أجل يا أبي، فيلم رائع. فيه الحياة هي الأقوى من الموت رغم أن الموت غياب أبدي عن الحياة.

تركت السينما ظهراً. مشيت وحدي في الشارع الذي أخذني فيه عندما حضرنا الفيلم معاً. كان المطر يهطل خفيفاً ناعماً. ولم يكن الجو بارداً. مشيت حتى «الكافدروا» دخلت المطعم دون قصد مني. كان هادئاً جداً وشبه فارغ من الناس. جلست إلى طاولتنا التي سبق أن أخذني إليها. صفقت للنادل. اقترب. إنه غير الذي رأيناه في تلك السهرة. قلت له بلهجة حاولت أن تبدو طبيعية:

ـ زجاجة بيرة من فضلك.

انحنى. ثم انسحب.

بعض الطاولات هُيِّئت لحفلات غداء قد تبدأ بعد ساعة أو أكثر. وهناك طاولات أخرى حول كل واحدة منها اثنان «رجل وامرأة» ما أروع هذا الفيلم..

عاد النادل بزجاجة البيرة وفتحها. أخذ كأسي بيده الأخرى وصبّ البيرة فيه «ربما هذه هي العادة»، إذا كانت المرأة وحيدة فالنادل هو الذي يصبّ الكأس. وبعد أن صبّ الكأس سأل بطريقة مهذبة عما إذا كنت أنتظر أحداً. هززت رأسي بالنفي فانسحب دون أن يتفوّه بكلمة.

لا أدري السبب. كانت أعماقي داكنة. هل هو تأثير الفيلم. وكنت أشعر بأنني وحيدة، وحيدة. وتمنّيت لو كان معي. يعتني بي هو، يصبّ لي كأسي هو، وتساءلت

كيف تجرأت ودخلت هذا المكان وحدي. تلفتُّ حولي. لا شك في أنني لفتُّ نظر الموجودين. كان بعضهم يتطلع نحوي بين الفينة والفينة، ولا شك في أنهم تساءلوا كيف تجرأت فتاة أن تدخل وحدها، وتطلب شراباً وحدها، وتشرب وحدها. ولكن لو أنهم يعلمون أنني أستعيد ذكريات أجمل ليلة في حياتي. ها قد أصبح لي ذكريات أعيشها، ذكريات تشدّني إلى أمكنتها. وأحسست كما لو أنه بجانبي الآن يحدثني، ويغمرني بالحب. إنه يحبني. ولكنه لا يجرؤ كما لا أجرؤ أنا على البوح. وإلا فلماذا طلب أن أناديه باسمه المجرّد؟ آه ليتني تمالكت نفسي تلك الليلة واستطعت أن أحسّ بما حولي. تُراه عانقني كما عانقته منذ زمن عندما عاد ثملاً لأول مرة بعد وفاتها؟ تراه اندسّ إلى جانبي في الفراش وشدَ جسدي إلى جسده؟ ما أغباني كيف لم أشعر بشيء؟ لقد عزّاني بيديه كما عزّيته أنا. وحملني إلى سريري بذراعيه كما استطعت أنا أن أفعل ذلك معه. ولكن هل تابع ما فعلته أنا به، حتى الآن لا يبدو عليه أنه فعل ذلك، أم هل له القدرة على إخفاء مشاعره ما دمتُ ثملة وشبه ميتة، كما كان هو من قبل ثملاً وشبه ميت.

تناولت رشفة من كأس البيرة «كوني حذِرَة حتى لا تدوخي. ستذهبين إلى البيت وحدك».

ما زلت أذكر كيف لامست أصابعه فخذيّ وهو يسحب عنهما الجوربين. ما زلت أذكر كيف لامست رؤوس أصابعه ظهري وهو يسحب سحّاب الفستان. وقتها اقشعرّ بدني وتمنّيت أن يأخذني بين ذراعيه لأضع لساني في فمه. ولكن يا إلهي. كيف فقدت الإحساس بالأشياء. ليتني لم أشرب كثيراً.. إنها المرة الأولى التي ذقت فيها شراباً بحياتي. لم أكن أدرك أن زجاجتين ستسيطران عليّ، ستأخذان مني إحساسي بلمسي للأشياء. قال هو إنها لن تؤذيني. هل تعمّد أن يفعل بي هكذا ليسرقني كما سرقته قبل ليالٍ؟ أتشتهيني وتخاف أن تبوح كما اشتهيتك وأخاف أن أبوح، يا أبي.

يا حبيبي متى نجرؤ ونتصارح؟ متى نجرؤ ويكشف كل منا للآخر نداءات قلبه؟ أحسست بنشوة في أعصابي، وخفت أن أتابع الشرب فنفحت النادل الدراهم وأسرعت إلى البيت.

في البيت وجدته ينتظرني. وكانت الساعة تشير إلى الثانية والنصف. قال:

ـ تأخرت يا حنان. هل كنت في الجامعة؟

ـ لا. كنت في السينما.

ـ في السينما؟ فيلم آخر؟

ـ لا. «رجل وامرأة».

ـ «رجل وامرأة» مرّة ثانية؟

ـ أجل مرّة ثانية. أردت أن أعيد النظر في مشاهده بعد أن فهمته منك جيداً. ضحك، ثم أردف:

ـ فيلم رائع. أليس كذلك؟

ـ جداً يا أبي. الحياة تنتصر على الذكريات دائماً.

وكان يجب أن أقول له أيضاً إنني ذهبت إلى الكافدروا، فأردفت:

ـ عندما خرجت من الفيلم وجدت نفسي في الحالة ذاتها التي وجدت نفسك فيها عندما خرجت منه.

ـ لو كنث معك لأخذتني إلى مكان ما وتناولنا طعام الغداء.

ـ فعلت ذلك وحدي يا أبي.

نظر إليّ مدهوشاً، مستغرباً. فتابعت:

ـ ذهبت وحدي إلى الكافدروا وجلست في المكان نفسه الذي جلسنا فيه معاً وطلبت بيرة أيضاً.

ـ يا إلهي. هل شربت بيرة؟

ـ أجل. ولكن ليس كثيراً.. لأنك تراني قد عدت وحدي.

ـ ولكن كيف خطر في بالك أن تذهبي وحدك؟ ماذا سيقول الناس الذين يعرفونك؟

ـ لا يهمّني الناس يا بابا. أردت أن أستعيد ذكريات تلك الليلة.

ـ إلى هذا الحد أنتِ معجبة بتلك السهرة؟

ـ كثيراً يا أبي.

ـ أوه. سنكررها دائماً متى تشائين.

ـ إنها أجمل ليلة عشتها في حياتي.

اقترب مني، وضمّني إلى صدره:

ـ أواه يا حنان. كم أحبك. كم أتمنّى أن تكوني سعيدة أكثر.

ـ أنت سعادتي يا عزّت.

ضحك.

ـ خذيني إليك. خذيني.

فرحت به كطفل. شددت نفسي إليه ثم همست:

ـ أنا جائعة يا أبي.

أخذني من يدي إلى غرفة الطعام. وسرعان ما غرقنا في الأكل سعيدين.

في المساء، قال لي:

ـ كوني عروسة. كما كنت تلك الليلة.

سُررت. وكنت بين يديه في ما بعد أجمل وأحلى. كان قد هتف يطلب سيارة أجرة، فنادانا بوقها بعد قليل.. هبطنا الدرج وقد تأبطت ذراعه. وعندما ضمّنا مقعد السيارة الخلفي قال للسائق:

ـ شارع بغداد.

انطلقت السيارة بنا. ولم تمضِ دقائق حتى كنا في عيادة الدكتور فؤاد. كان الطبيب ينتظرنا وسرعان ما

انتقلنا إلى سيارته. في الطريق تعاتبا. ثم التفت الصديق إليّ شاكراً لي إخراج أبي من عزلته الطويلة.

وقفنا أمام بناء شاهق. وعندما ترجّلنا من السيارة قال الدكتور فؤاد مخاطباً أبي:

ـ ستتعب كثيراً يا عزّت. المصعد لم ينته بعد، وستصعد هذه الطبقات السبع.

صاح أبي:

ـ يا إلهي! كل هذه الطبقات؟

ـ أجل. أنا شخصياً اعتدت ذلك. حنان صبية تستطيع أن تقطع الدرج ركضاً. أما أنت فكم آسف من أجلك.

قال أبي متحدّياً:

ـ مسكين يا فؤاد. أنا شاب أكثر منك. هيا.

أخذنا نصعد الدرج. وفوجئنا أنني أنا التي تعبت وما إن وصلنا الدور الثالث حتى كنت ألهث. لمحت نظرات الشك في عيني الطبيب، بينما قال أبي مازحاً:

ـ حنان. يبدو أنك أكبر منا نحن الاثنين. ماذا بك يا ابنتي؟

لم أقل شيئاً بينما كنا نصعد بقية الدرج. وفجأة لم أعد أتحمّل. صار جسدي يرتجف. وأخذ العرق يتفصد من جبيني. جلست على الدرج ثم خرجت الكلمات من فمي بصعوبة:

ـ يا أبي أكاد أختنق.

أسرع الدكتور فؤاد وصار يفرك جبيني وعنقي بأصابعه. ولم تمضِ دقائق حتى استعدت نشاطي، فعاودنا الصعود ببطء أكثر. وعندما وصلنا باب المنزل، صاح أبي:

ـ يا أخي أنت ساكن في السماء!

ـ يا شيخ ما زلتَ شاباً وتريدني أن أسكن في السماء؟ لعن اللهُ المصعد، وعدونا أن يكون جاهزاً للعمل يوم أمس، وكنت أتوقع أن يحملنا بثوان إلى هنا. ولكن زيارتكما المقبلة ستكون مريحة لأن المصعد سيكون قد أقيم فعلاً.

فتحت الخادمة لنا الباب. ثم أطلّت زوجة الدكتور ترحّب بنا. قبّلتني وأنا ما زلت ألهث. همست:

ـ أنتِ تعبت من الصعود. الحق معك. ولكن إذا أطللت من الشرفة فستنسين كل هذا التعب.

أسرعت إلى أول مقعد صادفني. كنت تعبة للغاية حتى كدت أسمع وجيب قلبي. وظللت ألمح نظرات الشك في وجه الطبيب. وأردت أن أرهِف السمع لحديثه مع أبي. لكن السيدة قالت:

ـ صرتِ جميلة يا عزيزتي. منذ زمان طويل لم أرك. إنك تشبهين أمك كثيراً رحمها اللهُ.

وتذكرت عندما كانت تزورنا مع زوجها وتستقبلها أمي. كانتا صديقتين حميمتين ولكن لم أحضر جلسة

من جلساتهم.أحياناً كنت أقدّم لهم القهوة، وأحياناً لا أراهم أبداً.

حتى الآن لم أستطع أن أتفوّه بكلمة. مازلت تعبة، ومازال وجهي ينضح عرقاً. اقترب الطبيب مني أخيراً. قال:

ـ قفي قليلاً يا حنان.

وقفت بصعوبة. لمحت في عيني أبي قلقاً مشوباً بحنان حبيب، وضع الطبيب يده تحت نهدي الأيسر ثم انحنى قليلاً وقرّب رأسه من صدري ثم ألصقني بخده يصغي بأذنه. بعد لحظات أبعدني عنه وطلب إليّ الجلوس، وزمّ شفتيه. ثم أخذ يدي وأمسك بمِعْصَمي وهو ينظر إلى ساعته. أخيراً قال:

ـ حنان، ستأتين غداً إلى عيادتي. قلبك متعب.

فوجئت وتخيّلت أن غمامة مفاجئة غطّت وجه أبي. لكن الطبيب تابع:

ـ لا تخافي، ليس الأمر خطراً. ولكن يجب أن أفحصك وأقرر لك بعض الأدوية.

صمت قليلاً. خيّم على أبي والسيدة قلق ظاهر. ثم سألني:

ـ هل شعرت بمثل هذا التعب قبل هذا اليوم؟

ـ لا. أبداً.

ـ عندما تتعبين هل تشعرين بدوار؟

ـ دكتور أنا لا أتعب أبداً.

وتذكرت عندما كنت مضطربة وأنا ألتصق بجانب أبي قبل أيام، وكيف وضع أصابعه مصادفة جهة قلبي فسألني إن كنت أشعر بضيق ما، ورجاني أن أخبره إذا انزعجت من أي شيء. ولكن كيف سأفسّر ذلك للطبيب؟ كيف أذكر له أن قلبي يضطرب كثيراً كلما فكّرت في أبي، أو لمست يده أو تمنّيته أن يأخذني بين ذراعيه؟ لم أستطع.

عاد الطبيب يسأل:

ـ في الجامعة مثلاً هل تمارسين رياضة، هل تركضين؟

ـ أنا لا أمارس رياضة ولا أركض وفي الجامعة لم يحدث لي شيء.

التفتَ نحو أبي:

ـ عزّت، هل أجريتم لها عملية ونزعتم لها لوزتيها؟

ـ أيوه. هذا منذ زمن بعيد.

ـ قبل العملية، هل كانت اللوزتان تلتهبان كثيراً.

ـ كثيراً جداً. وهذا ما دفعنا إلى أن نجري لها العملية.

ـ آه. بسيطة، بسيطة.

ويبدو أن الطبيب قد شعر بأن جوّ الجلسة أصبح ثقيلاً، فأراد أن يغيّر دفّة الحديث. فعاد يقول:

ـ بسيطة يا حنان. لا تنسي غداً في العيادة.

ثم التفت نحو أبي:

ـ تعال يا عزّت، ألا تريد أن ترى الشقة الجديدة.

تبعتهما مع السيدة. كانت شقة جميلة حقاً. كل الغرف مفتوحة بعضها على بعض ما عدا غرف النوم.. صالونان كبيران. غرفة المكتبة في صدر المنزل، نوافذها على شُرفة واسعة. غرفة الطعام إلى الطرف الآخر من الصالونين وكان الأثاث على الطريقة الإيطالية جميلاً ومريحاً. قال أبي معلَقاً:

ـ واللّهً يا فؤاد أنا أحب بيتي. ولكن أصبح بحاجة إلى إعادة نظر في تقسيماته.

ـ عندما تُقرّر ذلك قل لي. سآتي لك بصديقنا الفنان غازي، هو الذي رسم ديكور هذا البيت وأشرف على تنفيذه.

قال أبي:

ـ في الواقع هذا الأمر عائد إلى حنان.

وتطلع نحوي ثم أردف:

ـ هي أيضاً مهندسة ديكور. قبل أسابيع أعادت تنظيم البيت على شكل جديد كل الجِدّة.

ـ آه. تذكرت. لاحظت ذلك عندما زرتك.

والتفت نحوي متابعاً حديثه:

ـ أنتِ صاحبة ذوق رفيع يا حنان.

وأشار بيديه نحو الأثاث، ثم قال:

ـ قولي لنا ما هو رأيك في كل هذا؟
ـ في غاية الذوق دكتور.
واقترب من زوجته، ثم قال:
ـ في الواقع يا حنان الفضل في ذلك للست. هذا الأثاث كله هي التي اختارته.
ـ طبعاً ذوقك جميل يا سيدتي.
وتقدّم الطبيب إلى مكتبه، ثم قال:
ـ أما المكتبة والمكتب فأنا صاحب الاختيار فيهما.
ثم فتح النوافذ على الشرفة الوسيعة. أطللنا منها فإذا بدمشق أمامنا كالكفّ حنوناً وهادئة وأنوارها خافتة. صاح أبي:
ـ يا له من مشهد.
قالت السيدة:
ـ قلت ذلك لحنان، إنها لو تطلعت من الشرفة لنسيت تعبها.
ودون أن أشعر وضعت يدي على قلبي «أيها الأبله ماذا بك» كانت ضرباته مازالت سريعة. وشعرت بأن أحد العروق لا ينفذ منه الدم جيداً. لم أقلق فأنا لم أشكُ شيئاً منه قبل هذه اللحظات، ولم أشعر بأي تعب يدلّ على أن ثمة ما يضايقني فيه.
عدنا إلى الصالون، وجلسنا. ثم أخذت الأحاديث تترى من السياسة إلى قضايا البعض الخاصة. أما أنا فقد

أخذت أبتعد قليلاً قليلاً... عزّت على صدري أداعب شعره الفضي، أتلمّس ظهره، وصدره الكثيف الشعر. أتمسّح به كالقطة الأليفة «لا يهم العالم إذا كنت معي.. لا تهم الزلازل. ولا العواصف ولا الغابات المتوحشة إذا كنت معي. حبيبي أنت وشهوتي الأبدية. حنيني وحده. حبي وحده. إحساسي بالوجود وحده. سعادتي أنت، فافتح لي صدرك. أمنيتي أنت، فاسمع مني أمنيتي. أرهف السمع لوجيب قلبي. إذا اهترأ قلبي فلأنه يخفق بحبك. وإذا صمت لساني إلى الأبد، فقد صار كذلك من كثيرة ما لهج باسمك. عزت يا سيدي، يا حبيبي، متى تأخذني بين ذراعيك، تطويني على صدرك؟ تصعد إلى جانب جسدي العطشان عارياً تحت اللحاف...».

وقاطعتني السيدة:

ـ حنان، أنت لست معنا. هل قلقت من كلام فؤاد؟

ـ أبداً. أبداً.

ـ لو تعرفين، هؤلاء الأطباء يجعلون من الحبّة قُبّة. صارت عادتهم هذه فلم يعودوا يفرّقون بين الغريب والقريب. لا تخافي يا عزيزتي.

فقال الدكتور فؤاد موجّهاً الحديث إلى زوجته:

ـ من قال لك إنها خائفة؟ حنان تعرف أن الأمر بسيط للغاية ولا داعي للقلق. بعض العقاقير وينتهي الأمر.

قلت:

ـ أنا لست خائفة. لم أفكّر في الأمر.

قالت السيدة:

ـ لكنك كنت شاردة.

رمقت أبي بعينين عاشقتين، ثم همست:

ـ صدّقيني لم يكن شرودي بسبب هذا الموضوع.

«لو تعلم ما الذي كنت أفعله بك.

متى تعرف.

آه يا أبي، أكاد أجنّ بك».

هذا الصباح، حاول أبي مِراراً أن يُخفي قلقه. لكن عينيه كانتا تفضحان ما يعتمل في صدره. أخيراً قال:

- وأنت صغيرة، لوزتاك أهلكتانا.

اقتربت منه.

- أنت خائف يا أبي.

- آه يا حنان لم يعد لي سواك.

أخذت يده إلى فمي ورحت أداعب أصابعها بشفتيَ.

- لو كان الأمر خطراً لشعرت بذلك أنا. لم أشك شيئاً طول حياتي. لم أذكر أنني شكوت حتى ألم الرأس.

قرّبني منه. ثم وضع يده على قلبي.

- لقد شككت، منذ أيام شككت. دقاته ليست طبيعية.

- والآن.

- الآن يا حنان قلبك ليس طبيعياً.

كان الجزع هذه المرّة قد بان واضحاً في عينيه، وفي اضطرابه، فخفت. «ما هذا الذي تسلّل إلى صدري فأصاب قلبي بهذا السوء؟». وخفت أكثر ما خفت على أبي، كان كطفل مرعوب:

- يا أبي لا أظن أن في الأمر خطراً. فؤاد كان طبيعياً جداً عندما تحدث في الموضوع. ثم هذا المساء سنرى.

غامت عيناه وأجابني بكلمات مرتجفة:

ـ احذري. إذا حدث لك شيء فسوف أموت من الحزن. لا بل أصدقك القول إنني سأضع حداً لحياتي على الفور.

ـ يا أبي أنت ترعبني. تجعلني خائفة. تبث في أعصابي اليأس. على العكس يجب أن تهوّن الأمر عليّ.

ويبدو أنه أدرك خطأه، فأراد أن يتبدل على الفور، لكنه لم يستطع. كان خائفاً كطفل وحيد في غابة موحشة. قال هامساً:

ـ متى سنذهب لزيارة فؤاد.

ـ ليس الآن. اذهب إلى مكتبك، وفي المساء سنذهب معاً.

ـ كما تريدين. هل ستذهبين إلى الجامعة.

ـ قد أذهب إذا وجدت استعداداً نفسياً لذلك.

ـ أوه، اذهبي إلى أي مكان. روّحي عن نفسك يا حنان.

ثم مد يده إلى حافظة نقوده وأخرج مبلغاً كبيراً، وتابع:

ـ خذي يا حنان ضعي هذا المبلغ معك.

ـ ولكن لست بحاجة إليه يا أبي. لديّ ما يكفيني.

ـ لا. أرجوك خذيه. اذهبي إلى أي مكان. اصرفي هذا المبلغ، اشتري شيئاً لك، اشتري هدية لي. انظري، السماء صاحية.

«يا إلهي، كان جَزِعاً. لا شك في أن فؤاد صارحه بحقيقة ما.... هل قلبي خطر إلى هذا الحد؟».

ـ كما تريد.

أخذت المبلغ من يده. عانقني، وأحنى رأسه ليقبّلني، فأدرت شفتيَ إلى فمه. كانت شفتاه حارّتين. ثم جر خطواته نحو باب المنزل كفارس مهزوم.

تضايقت...

وضعت يدي على قلبي «آه ما الذي حدث لك؟ انسي ذلك الآن».

عدت إلى المبلغ: ثلاثمئة ليرة.

هذه أول مرة آخذ فيها مبلغاً مثل هذا.

ارتديت ملابسي ونزلت إلى السوق. كانت الشمس تغمر شارع الصالحية، وقد خرج الناس يتدفأون ويتسكَعون أمام واجهات المحالّ التجارية.

كنت أخطو ببطء.

«قلبي.. أيها اللعين».

وقفت أمام محل تغلب صفة ربطات العنق على بضاعته: «أول ما سأشتريه ربطات عنق لك يا أبي». دخلت المحل، وقلت للبائع الشابّ:

ـ من فضلك، أرني تشكيلة من ربطات العنق.

وبحركات تمثيلية فردَ أمامي تشكيلة واسعة، اخترت لأبي ثلاثاً منها، فوضعها الشاب في علبة أنيقة وربطها

بشريط أبيض. ثم دفعت إلى الصندوق ستين ليرة، وخرجت فرحة. سيحبّ أبي ربطات العنق هذه. لقد راعيت سِنّه ومركزه الاجتماعي.

تابعت مسيري إلى محالّ أخرى. اشتريت حذاءً بني اللون ومحفظة جلدية مشابهة. ولم أنسَ أم حسن فاشتريت لها إيشارباً أبيض.

في طريقي إلى المنزل خطرت لي فكرة، فوقفت أمام مطعم «أبوكمال» وأوصيته بإعداد فرّوجين مشويّين، وأعطيته عنوان المنزل، وطلبت إحضارهما في الساعة الثانية والنصف، ثم عرّجت على محل لبيع الزهور، وطلبت أن يصنع لي باقة من جميع الورود ما عدا الزنبق والبنفسج. ثم حملت الباقة وأوقفت سيارة أجرة وانطلقت إلى المنزل.

عندما وصلت أخفيت الأشياء التي اشتريتها. وقلت لأم حسن:

ـ جئتك بهدية.

انفرجت أساريرها. اقتربت.

ـ خذي.

وفردت الإيشارب.

ـ اللهً يرضى عليك يا ابنتي.

اقتربت مني وقبلتني بحنان، ثم همست:

ـ أنت بنت طيبة.

ـ أم حسن، عندنا أناس على طعام الغداء. اذهبي إذ شئت.

ـ ولكن لم أفعل شيئاً بعد.

ـ هذا أفضل. لأنني سأجلب الطعام من المطعم.

ـ كما تريدين يا ابنتي. شكراً لك على هديتك. الله يرضى عليك.

نظرت إلى الساعة. كانت الثانية عشرة والنصف. أجلت طَرْفي في الصالون فلفتت نظري صورة أمي. أخذتها من مكانها وأسرعت فأخفيتها في خزانة ملابسي. عدت ووضعت وعاء الورد في مكانها تماماً ورحت أصف فيه الأزهار المختلفة الألوان، وتطلعت بعد ذلك بارتياح: «لقد أزلت آخر أثر لك يا أمي. اعذريني. يكفي أبي هذا الحزن الطويل». وأخذت أوزّع الأزهار في أنحاء المنزل، في غرفة الطعام، في مكتبه، في غرفة نومه، في غرفتي، حتى في المطبخ. ثم أعددت بعض المقبّلات وصحناً من السلطة. وأخذت أعيد النظر في كل ما فعلت. وتساءلت ماذا سيقول إذا لم يجد صورة أمي؟ «لا. لقد آن الأوان لترفعي ظلك الميت عن هذا البيت». بعد أيام سأضع في مكانها إحدى الصور التي تجمعني وإيّاه، لدي الكثير منها، هذا البيت أصبح لي وحدي. نظرت إلى الساعة، كانت تقترب من الثانية. هتفتُ للمطعم أذكرهم بإحضار الفرّوجين في الوقت

الذي حددته. ثم أسرعت نحو الشرفة أرقب مدخل الشارع. «يا أبي، سأنقذك حتى من الخوف عليّ». وأطل أخيراً. يبدو أنه ترجّل من السيارة في أول الشارع فالشمس مازالت تسطع على المنازل والطرقات. أخذ يقترب وعيناه ترقبان نوافذ بيتنا. لمحني في الشرفة فابتسم ورفع يده محيّياً. عندما ولج مدخل البناية، أسرعت إلى الباب وفتحته له وما إن أغلق الباب خلفه، حتى ضمّني إلى صدره. ثم انتبه إلى الأزهار الموزّعة في زوايا الصالون. ضحك:

- الشمس تنبئ بالربيع. سبقتِ الشمس يا حنان.

لف يده على خاصرتي وتقدّم بي:

- ها. ترى ماذا صنعت لنا أم حسن؟

- أم حسن ذهبت يا أبي.

تطلع إليّ مستفسراً.

- لا. ليس هناك ما يشغل بالك. أنا طلبت منها أن تذهب لأنني قررت اليوم أن أعِدّ لك طعام الغداء.

رمقني بارتياح.

- يا حناني الوحيد.

جلس على المقعد المواجه للمذياع، وأخذ يحدّق في الأزهار. كنت أراقب نظراته. تظاهر بعدم الانتباه إلى مكان الصورة، فشعرت باطمئنان بالغ يغمر كياني.

وقف. اتجه نحو غرفته، ثم عاد بعد قليل وقد خلع ملابسه وارتدى منامته. منذ رحلت أمي لم يفعل ذلك، فأدركت أن جميع الجدران قد انزاحت من طريقي. ذهب إلى الحمّام، فأخذت المنشفة وانتظرته كما كانت تفعل أمي في القديم. أخذ المنشفة من يدي ومسح وجهه، ثم يديه. تقدم نحو غرفة الطعام في الوقت نفسه الذي قُرع فيه الجرس. عرفت أن الفرّوجين قد وصلا. تركت أبي وفتحت الباب فأخذت الفرّوجين من الصبي الصغير وأسرعت بهما إلى المطبخ، وسرعان ما حملتهما في الأطباق إلى أبي.

تطلع إليّ ضاحكاً:

- يا سلام. رائحة الفراريج تفتح الشهية.

جلست بالقرب منه وشرعنا نأكل. سألني:

- هل خرجت؟

- خرجت. قضيت على نصف ما أعطيتني.

- أوه، ما أروعك.

- أتيت بهدايا لك.

ولمحت فرح الأطفال في وجهه.

- وبهدية لأم حسن.

- لأم حسن أيضاً.

- أجل. إيشارب أبيض.

- لا شك في أنها فرحت به. ماذا اشتريت أيضاً؟

ـ اشتريت أشياء كثيرة.

ـ إذن هيا لنسرع. أشتاق إلى هداياك.

ـ أوه.

وضعت يدي على يده.

ـ كُلْ أولاً.

ضحك، وصار يلتهم الفرّوج بسرعة.

بعد قليل. كنا معاً في الصالون وقد حملت العُلَب بين يدي. همست:

ـ هذه هديتك.

أخذ العلبة من يدي وفك شريطها، ثم سحب ربطات العنق.

ـ مدهشة! ذوقك مدهش يا حنان.

وربط إحداها على أصابعه.

ـ ما أروعك. كان يجب أن أتركك تختارين ربطات عنقي منذ زمن طويل.

وضع الأولى جانباً، ثم عقد الثانية.

ـ يا اللهّ ما أروع هذا اللون.

فعل بالثالثة أيضاً ما فعله بالاثنتين.

ـ هذه أجمل الثلاث. إنها تليق بالطقم الأسود. أجمل ما فيها هذا الخط الأحمر الدقيق على لون أسود غامق.

وضع الثالثة إلى جانب الاثنتين. وفتح لي ذراعيه.

ـ أنت مدهشة يا حنان.

فركضت أدفن وجهي في صدره ورحت أتمرّغ فيه بلذّة نشوانة.

أبعدني عنه هامساً.

- وأنت أين أشياؤك؟

وعندما فتحت العُلبتين صاح:

- رائعة، رائعة.

ثم ترك هذه الأشياء، وأخذني من يدي إلى مكان الصورة حيث وضعت الورد، فارتجف قلبي، وخفت أن يسألني شيئاً. ماذا سأقول له؟ سأصارحه، سأقول له: كفى لها هذا الجلوس الطويل في هذا المكان، لقد آن لها أن ترحل عن قلبك إلى الأبد. عامان طويلان وأنت تحدّق فيها وهي تكاد تسخر منك في إطارها الأسود.

ولكنّ أبي لم يفعل شيئاً، بل أخذ وردة واحدة وقدّمها لي قائلاً:

- كم أشكرك على هديتك الرائعة.

أخذت الوردة وضممتها إلى صدري. أخيراً انتصرت. توقعت أن يأخذني إلى غرفته، يقبّلني، يضمّني طويلاً إلى صدره، وفوجئت وهو يقول:

- أنا بحاجة إلى الراحة قليلاً. إذهبي إلى غرفتك وارتاحي. في المساء لدينا موعد عند الدكتور فؤاد.

لم أقل شيئاً.

ابتعدت عنه بينما كنت أحسّ بخطواته تبتعد أيضاً.

دخلت غرفتي.

تطلّعت إلى الوردة بحنان «هي قبلته الأولى. من قال: عندما يعطيك حبيبك وردة فهي قُبلته الأولى؟». وضعت الوردة على فمي، أخذت أتلمس أوراقها بشفتي ولساني وأستنشقها بقوة. أحسست رائحة عرقه تمتزج بأريجها. استلقيت فوق سريري والوردة بين يدي، ألامس أوراقها بأصابعي حيناً وبشفتي حيناً وبأجفاني حيناً آخر.

«يا أبي، يا حبيبي الوحيد، هي قبلتك الأولى إذن، متى ستعتصرني بين يديك، متى ستأكلني بشفتيك؟».

وتذكرت صورة أمي، فأحسست بانهيار في داخلي. قمت إلى خزانة ملابسي، وأخرجت الصورة. كنت أودّ أن أقول لها أشياء كثيرة، لكنني لم أستطع أن أتفوّه بكلمة واحدة. أعدتها إلى مكانها ثم أخرجت «ألبوم» الصور الذي أحتفظ به، ورحت أقلّبه قطعةً قطعةً حتى رأيت صورة مناسبة لي مع أبي تجمعنا أمام بحيرة متألقة في مدينة المعرض. أعجبتني الصورة. كان يمسك بيدي وينظر إليّ، بينما كانت نظراتي متجهة إلى آلة التصوير.

تطلعت إلى الصورة، ثم إلى الوردة التي ما زالت في يدي الأخرى وهمست:

ـ يا أبي ما يزال لدينا وقت طويل. وسوف نرى.

أعدت الألبوم إلى مكانه، ووضعت الصورة بالقرب من المصباح الكهربائي. ثم استلقيت فوق السرير والوردة على صدري. وسرعان ما غفوت.

استيقظت بعد ساعة تقريباً. مازال نور النهار يغمر الغرفة. خلعت فستاني الذي تجعّد وارتديت منامتي. ثم وضعت الوردة في كأس صغيرة وغمرتها بالمياه. وعدت لأستلقي من جديد.

لم أنمْ. أخذت الصور تتوالى في رأسي «ماذا لو كانت حال قلبي خطرة؟».

وحاولت أن أبعد عن ذهني فكرة الموت، لكنها ألحَت عليَّ إلحاحاً شديداً: ماذا لو متّ فجأة؟ سيصبح أبي وحيداً. سيضطر إلى أن يأتي بامرأة لتعتني به. لا. لن أسمح لامرأة غريبة بأن تطأ عتبة هذا البيت. هذا بيتي. وهو أبي، وحياتي وحبي الوحيد. لن أسمح لامرأة بأن تأخذه مني. ولذا يجب أن أعيش، أن أعيش طويلاً إلى جانبه، حتى يصبح شيخاً على عصا، حتى يكف بصره. سأرعاه إلى الأبد، ولن تأخذه امرأة مني. سيظل لي. لا خطر عليكَ أيها القلب، أليس كذلك؟ ووضعت كلتا يدي على قلبي «قل لي، حدثني، هل تعاني مرضاً خطراً؟ هل ستودي بي؟ هل ستفرّق بيني وبينه؟ سأكرهك إن فعلت ذلك، سأخنقك أنا قبل أن تخنقني».

ولم أتمالك نفسي.

فأخذت الدموع تتساقط من عيني.. ثم رحت أجهش ببكاء طويل.

أرهِقت. قمت إلى المغسلة وغسلت وجهي مراراً. كانت عيناي محمرّتين. خرجت إلى الشرفة الخلفية. أخذت الشمس تغيب خلف غيم أسود راح يملأ الأفق. وهبّ هواء بارد وصار يلسع وجنتي، فغمرني حزن طاغ «كيف سأفقد هذه الحياة؟». وفجأة سمعت طرقاً خفيفاً على الباب فركضت «يا إلهي. لقد جاء. لقد جاء». وتسمّرت عند الباب كأنّ قدميَ التصقتا بالأرض «لا. لن أفتح له. سيرى حالتي. سيلمح آثار الدموع في عيني. سيؤذيه منظري. لا. اذهب. لن تراني الآن».

لعله ظنّ أنني مازلت نائمة، إذ لم يعد يطرق الباب. بعد قليل سمعت باب المنزل يُفتح ويُغلق، فركضت متسائلة «إلى أين خرج؟». ولم أشأ أن أناديه. الأفضل أن لا يراني بهذه الحالة السيّئة. عدت إلى الصالون. كان ما يزال مكان الصورة القديم يجذب نظري، فلمحت ورقة قد أسنِدت إلى آلة الهاتف فاقتربت منها. إنه خطه.

«سأغيب في المكتب حتى الثامنة. أرجو أن تكوني جاهزة في هذا الوقت لنذهب معاً إلى الدكتور فؤاد. لك حبي».

«حبك، أي حب تعني، حب الأب لا، أنا متبرَعة به لابنيك. أريدك أن تعشقني، تشتهيني، تتمنّاني عارية، تلغي غرفتي الكئيبة هذه، تجعل غرفة نومك غرفة نومي، متى تحس يا أبي؟ متى؟».

وخطوت نحو غرفتي والورقة بيدي «يجب أن أعرف أشياءه الصغيرة، ذكرياته...». أخرجت الوردة من كأسها ومسحت عن غصنها بقايا الماء، ثم تناولت دفتري الصغير حيث أجمع قصائدي، ووضعت الوردة والورقة بين صفحتين من صفحاته ثم أغلقته وأعدته إلى مكانه. نظرت إلى الساعة. إنها السادسة والنصف. يا إلهي. سأقضي وقتاً طويلاً وأنا أنتظره. خرجت إلى الشرفة. عدت إلى غرفتي. خرجت إلى الشرفة المطلة على الشارع. عددتُ الشجرات الصغيرة المزروعة في طرفَي الرصيفين، ولأول مرة عرفت أنها عشرون شجرة. عدت إلى مكتبه وأخرجت أحد كتب نزار قباني ففتحته وقرأت قصيدة:

«دخَنْ
لا أروعَ من رجلٍ
يَفنى في الركن
ويُفنيني
رجل
تنضمّ أصابعه

وتفكّر
من غير جبينِ».
قلبت الصفحة:
«في هذا المعبد
أتأمل
في الوجه المجهد
وأعدّ... أعدّ
عروق اليد
فعروقُ يديك
تُسليني
وخيوط الشيبِ
هنا وهنا
تنهي أعصابي
تنهيني».
وقلبت الصفحة:
«أحرقني
أحرقْ بي بيتي
وتصرَف فيه
كمجنونِ
فأنا كأمرأة
يكفيني
أن أشعر أنك

تحميني».

يا نزار ما خطر في بالك فتاة تعشق أباها، تشتهيه، تتمنّاه، تحب ولداً منه؟

أعدت الكتاب إلى مكانه. تناولت سيجارة من علبة المكتب فأشعلتها، صرت أراقب دخانها وهو يتصاعد، ثم أطفأتها في منتصفها، ودفنتها في رمادها. خرجت إلى الصالون. حاولت ترتيب الورود من جديد، أشعلت المذياع، أطفأته، أشعلت التلفزيون، كم هو سخيف. أطفأته. اقتربت من الهاتف. ومن غير ما شعور راحت تعبث أصابعي بأرقام مكتبه «لماذا لا أكلمه؟». رفعت السماعة، وضربت الأرقام، واحد، ثلاثة، واحد، صفر. صفَّر الهاتف قليلاً، ثم سمعت صوته دافئاً، مثل كانون النار في ليالي الشتاء.

ـ المحامي عزّت؟

عرف صوتي؟

ـ يا حنان، متى استيقظت؟

وتنكرت.

ـ من هي حنان؟ أنا سيدة معجبة.

ـ أيتها الشيطانة، صوتك، أعرفه بين ملايين الأصوات. أنت حبيبتي، فكيف لا أميّز صوتك؟

صمت قليلاً ثم أردف:

ـ هل كنت نائمة؟

ـ كنت غارقة في النوم.
ـ سأكون عندك بعد نصف ساعة، هيّئي نفسك.
ـ اسمع يا أبي.
ـ نعم.
ـ بعد أن نترك عيادة الدكتور، ستلبي دعوتي إلى العشاء.
ـ هذه الليلة..؟
ـ أجل. هذه الليلة.
ـ سنتحدث في ذلك عندما نخرج من عند الطبيب. إلى اللقاء.

وضع السمّاعة، وشعرت بارتياح يغمر نفسي. عدت إلى غرفتي وأصلحت من زينتي، وارتديت ملابسي. ثم طفقت أقرأ كتاباً في علم النفس فلم أفهم شيئاً. أعدت قراءة الصفحات مرة ثانية، ثم تركت الكتاب. عدت إلى مكتبه. تركت مكتبه إلى غرفة نومه. أعدت تسوية الفراش. شعرت بدفء وأنا ألمس فراشه. ثم عدت فوقفت في الشرفة أنتظره. أخيراً جاء، ولم يرني في الشرفة، فقد أصبح الوقت ليلاً. عند الباب ضمّني، ثم قال:

ـ سنستريح قليلاً. هل تعدّين لي فنجاناً من القهوة؟

تركته يدخل مكتبه وأسرعت إلى المطبخ. عدت إليه بعد لحظات وفنجان القهوة بين يدي. كان يدخن تبغاً

معطراً. أخذ الفنجان من يدي، وهمس:

ـ شكراً حنان.

بعد قليل مدّ يده إلى الهاتف، وضرب رقماً.

ـ آلو. فؤاد. أنا عزّت. هل أنت بخير؟ أنا لا بأس، أجل. سوف نكون عندك بعد قليل. إلى اللقاء.

أغلق الهاتف، والتفت نحوي:

ـ حنان هل أنت مستعدة؟

ـ أجل.

أخذني من يدي، وهبطنا الدرج معاً. بدا الجو في الخارج بارداً. مدّ يده منادياً سيارة أجرة. حملتنا السيارة إلى عيادة الدكتور. هناك استقبلنا فؤاد مبتسماً ثم قال:

ـ سأكون جاهزاً بعد دقائق.

كان لديه مريض، انتظرنا حتى خرج، ثم دخلنا العيادة. بدأ الدكتور يسألني أسئلة كثيرة وراح يفحصني من كل أنحاء جسدي. وأخيراً قال موجهاً الكلام إلى أبي:

ـ بسيطة يا عزّت. بسيطة. سأتصل غداً بالدكتور جوزيف وهو اختصاصي في أمراض القلب ناجح جداً. سأطلب منه أن يحدد لنا موعداً، فالأفضل أن يشرف على معالجتها هو حتى نكون متأكدين من كل شيء. وأعتقد أن الأمر سيكون بسيطاً للغاية. ربما كان هناك

ضيق في أحد الدسامات، وهذا المرض هو أهون أمراض القلب، ومعالجته بسيطة.

والتفت الطبيب نحوي:

ـ حنان، لا تخافي. ليس في الأمر أي خطر. حكايتك بسيطة جداً.

«الأمور كلها بسيطة، دائماً يقول عن كل شيء: بسيطة».

ـ لست خائفة دكتور.

ـ غداً سأتصل بكم، وأخبركم عن الموعد الذي سيحدده لنا الدكتور جوزيف. لا تهتما للأمر.

كان أبي يرمقني، ثم يحدّق في الطبيب.

وحضر إلى عيادة الدكتور فؤاد مرضى آخرون، فاستأذناه. وعندما ضمتنا سيارة الأجرة لاحظت أن أبي غارق في التفكير، أقلقته حالتي. قطعت عليه تفكيره:

ـ يا بابا أين تحب أن نتناول عشاءنا.

ـ آه. أنت مصرّة على دعوتك.

ـ جداً. ثم لا تنسَ أن لدي دراهم كثيرة.

ـ ما رأيك لو نؤجل هذه السهرة؟

ـ أبداً يا أبي. أنا مشتاقة أن أسهر معك. سنذهب إلى الكافدروا. ما رأيك؟

ـ إذا كان لابدّ من ذلك فلا بأس يا عزيزتي.

صحت بالسائق:

ـ من فضلك خذنا إلى الكافدروا.
التفتُ نحو أبي. لم يكن على عادته. كأن شيئاً غريباً طرأ عليه. لا شك أنه يفكر فيّ.. لا أريد أن أكون سبباً في تنغيص حياته. أمسكت يده، فبوغت بي. حملت يده إلى صدري، ثم إلى فمي وصرت أقبّلها من كل أطرافها. كان مستسلماً لي دون أن يتفوّه بكلمة.
وضعتنا السيارة أمام الكافدروا. وفرحت عندما وجدت طاولتنا الحبيبة فارغة.. وعندما جلسنا قلت:
ـ قل لي، تريد شرابك المفضل طبعاً. وأنا سأشرب بيرة. أعجبتني البيرة يا أبي..
ـ ولكن ليس من اللائق أن تطلبي أنتِ.
ـ دعك من اللياقة. أنا دعوتك، فاترك لي أن أتصرّف. ألا تريد أن أشعر بالفخر لأنني دعوتك.
كان حزيناً وهادئاً. قال:
ـ افعلي ما يحلو لك.
صفّقت.
اقترب منا النادل. إنه النادل القديم الذي رأيته أول مرة. انحنى أمامنا بعذوبة. طلبت أن يجلب لنا ما أريد، وسجّل كل ما قلته.
آتنا بزجاجة ويسكي.
فأردف أبي:
ـ ربع ويسكي.

وتابعت:

ـ وزجاجة بيرة.

قال لي أبي بينما كان النادل ينسحب:

ـ لن نسهر كثيراً. وأنت يكفيك قدح بيرة.

ـ أوه يا أبي. أنا سعيدة بك. اتركِ الحياة تمضي بنا كما تشاء.

لم يجب. وبدا لي متعباً للغاية. وأحسَسْت أنه يزداد قلقاً. أنا أيضاً خائفة. عاد النادل فتناول أبي زجاجة البيرة ثم صبّ لي في كأسي، كذلك فعل لنفسه فصبّ كأساً من الويسكي، فسبقته وحملت كأسي وطرقتها بكأسه.

ـ بصحتك بابا.

ـ بصحتك يا عزيزتي.

وبدأنا نشرب. كان كئيباً، وكنت أحاول جذبه للحديث دون جدوى.

أمسكت بيده وهمست:

ـ عزّت.

ضحك. ثم قال:

ـ تذكرت؟

ـ أجل. ألم تطلب مني أن أناديك باسمك المجرّد في مثل هذه الأمكنة؟

ـ أجل يا حنان.

ـ عزّت.

ـ نعم يا عزيزتي.

ـ ألا تريد أن ترقص؟

ـ هل ترغبين؟

ـ كثيراً.

أخذني من يدي وتقدّم بي إلى المرقص، ولكن أحسستُ كأنني أراقص جثة. كان بطيئاً ومتهالكاً للغاية.

همست:

ـ أنت تَعِب.

ـ جداً يا عزيزتي.

ـ هل نذهب إلى البيت؟

ـ أفضّل ذلك.

ـ ولكن سنشرب كل ما بقي.

ـ طبعاً.

عدنا إلى الطاولة، وأخذ يكرع الويسكي كعصير البرتقال.

اقتربت من أذنه:

ـ أنت قلق عليّ يا أبي.

ـ حنان ليس لي سواك.

ـ لا تخف.. لقد أوهمك الدكتور فؤاد.

وضعت رأسي على كتفه. فمدّ يده وجسّ نبضي. أردت أن أخلعه من أفكاره.

ـ بابا، أنا «دوخانة».
ـ ما أحلى هذه الكلمة تخرج من فمك كالسحر. قوليها مرة ثانية.
ـ دوخانة يا بابا.
ـ وأنا بدأت الدنيا تدور بي.
ـ ضمَني إليك.
ـ العيون تلتهمنا يا عزيزتي.
ـ ضمَني إليك.
ـ يا مجنونة نحن في محلّ عامّ.
ـ إذاً قُمْ. خذني إلى البيت.. لن يرانا أحد هناك.
ضحك فيما كان يصفق. اقترب النادل منا، فأمسكت بيد أبي وقلت:
ـ أنا سأدفع.
وتركني أدفع الحساب. ثم خرجنا. وفي المقعد الخلفي من السيارة ألقيت رأسي على كتفه.
ـ أنا مشتاقة إلى البيت. لن يرانا أحد هناك.
لم يجب. قلت:
ـ لن أقول للشرطة شيئاً، وأنت؟
لم يجب. بل ضغط بخدّه على رأسي. ثم أمسك بيدي وحضنها بين كفَيه.

صرت أحب هذا الغموض الذي أخذ يلف أبي من جديد، الغموض القديم الذي عشقته فيه. واختلطت عليّ الأشياء، فلم أعد أعرف إن كان يحبني كما أحبه؟ إن كان يصارع ذاته حتى لا يسقط أم يصارع ذاته حتى لا يظهر قلقه. كان قد هتف الدكتور فؤاد إليه وأعلمه عن الموعد الذي ارتبط به مع الدكتور جوزيف. قال لي أبي قبل أن يذهب إلى مكتبه:

- فؤاد صديق جيّد. لقد اتفق مع الدكتور جوزيف على اللقاء بعد التاسعة حتى لا يزعجنا أحد من مرضاهما. ستكون زيارة شبه عائلية، ثم سنتحدث في أمرك، وسيقرران ما الذي يجب أن نفعله.

شغلتني أيضاً حالتي، وصرت خائفة، ولكن ليس مثل خوف أبي عليّ. صرت خائفة عليه أكثر من خوفي على نفسي، وخائفة على نفسي من أجله لئلا يتعذب. لم يكن يمزح عندما قال:

«إذا حدث لك مكروه فسوف أضع حداً لحياتي» .عمري ما سمعته يتحدث عن الموت، ربما أدرك أنه سيعيش وحيداً كالغرباء إذا رحلت عنه. هل سيحب غير

أمي، غيري إن كان يحبني، أي امرأة تستطيع أن توفر له الجو الذي وفّرناه له حتى الآن؟

«ولكن لماذا تشتطَ بك الأفكار السود. هناك الملايين ممّن يشكون عِللاً في قلوبهم، ولا يموت إلا النادر فيهم، إلا الذين اهترأوا وتجاوزوا الكثير من أعمارهم. فلماذا أنتِ خائفة إلى هذا الحد. الحمد للّهً أنك لا تشعرين بوجع».

أخذت أدور في غرف المنزل. اقتربت من المطبخ ودخلت على أم حسن:

ـ كيف أنتِ يا أم حسن؟

ـ الحمد للّهً يا ابنتي.

ـ حدّثيني. هل تعرفين أحداً يعاني مرضاً في قلبه.

ذهِشت أم حسن للسؤال، ثم سألتني كأمّ:

ـ ما الذي يشغل بالك يا ابنتي؟

ـ أم حسن، لي صديقة في الجامعة قلقة على حالتها إذ قالوا لها إن قلبك تَعِب.

ـ يا ابنتي كلنا قلوبنا تعبة.

ـ خالتي أم حسن، قولي لي.

ـ أنا أقول لك الصدق. كل هؤلاء الناس لهم علّة في قلوبهم، لكنّ الأطباء يا ابنتي يريدون أن يشتغلوا.

صمتت قليلاً ثم أردفت:

ـ أختي ماتت وهي في الخمسين. قالوا وقتها إن قلبها أودى بها. صدّقيني لو ذهبتْ إلى الأطباء لنغّصوا عليها حياتها، ولماتت في الوقت نفسه الذي ماتت فيه. كانت مبسوطة وسعيدة، ولو ذهبت إلى الأطباء لقضت عمرها بين العقاقير والأدوية. الأعمار بيد اللهَ يا ابنتي. يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيّدة. لا يذهب إلا الذي انتهى عمره.

أردت أن أقول شيئاً لأم حسن، ولكنها استمرت:

ـ هذا الوقت، إذا تألم الواحد من رأسه يركض إلى الطبيب. في زماننا يا ابنتي، لم نكن نهتم كثيراً. كانت الوصفات الشعبية أكثر من عقاقير أطباء اليوم. كانت الواحدة إذا أحست بالتعب صنعت كأساً من شراب البابونج أو اليانسون أو النعناع، فينتهي كل شيء. الآن تغيَرت الحالة، وصار الأطباء بعدد الناس، ويريدون أن يشتغلوا يا ابنتي.

لم أكن أستطيع أن أقاطعها، فتركتها وذهبت إلى غرفتي. تناولت أحد الكتب وحاولت أن أعيش في صفحاته، لم أستطع القراءة فرميت الكتاب جانباً. قلت في نفسي: «مازلت صغيرة. ليتني أعيش خمسين سنة. أخت أمحسن عاشت سنيها الخمسين وأنجبت أولاداً كثراً وفي قلبها عِلَة. أنا مازال لدي وقت طويل. لماذا أخاف إذاً؟ عندما أصبح في الخمسين يكون أبي شيخاً

طاعناً في السنّ وربما يموت قبلي، وعندئذ ستهون الأيام عندي، وتصبح الحياة والموت سواء. من أجله أعيش، وسأعيش. سيستسلم لي أخيراً، لابدَّ أن يستسلم. قد تكون حالتي دافعاً له ليتخلّى عن تجاهله، ليأخذني بين ذراعيه، ويعيش لي إلى الأبد. وقد يكون القدر قد أوجد حكاية قلبي لتساعدني على الفوز بسعادتي. هناك من يموت بالسرطان، ومن يموت مدعوساً، وهناك من يموت بالسل، وكما يقولون تعددت الأسباب والموت واحد. سأموت عاجلاً أو آجلاً. أبي سيموت. كل العالم سوف يموت. مجانين هؤلاء الذين ينادون بالقِيم والتقاليد. الحياة ممنوحة لنا هكذا، لنعيشها بكل لذاتها ولحظاتها، لا لنقتلها في أنفسنا بالتقاليد والقِيَم البالية قبل أن تدفع بنا إلى حُفرة صغيرة. ربما في هذه الحالة وحوش الغابة أسعد منا نحن البشر إذ لا تحاصرها التقاليد والقوانين.

لو أنك تشاركني أفكاري، وتضع حداً لعذابي، وتأخذني بكل شجاعة إلى غرفتك، تعرّيني، تلمس جسدي، تلفّ شعري على يدك، وتضربني، تعضني، تخنقني، ترمي بي على الفراش الوثير. لم يبق إلا الفراش لأمسح ظلها نهائياً من هذا البيت. متى تفعل ذلك؟ أخاف أن يسبقنا القدر. أخاف أن تفصل بيننا الجدران من جديد.

ليتنا لم نذهب لزيارة الدكتور فؤاد في منزله، لما كنا سقطنا في هذه البئر المظلمة، ولعشنا أيامنا الباقية دون خوف. لم أفرح بعد بانتصاري على ذكريات أبي. ها قد عاد إليه حزنه القديم مضروباً بأضعافه. كان حزنه القديم مستسلماً، مطمئناً، حزنه الآن يرافقه خوف وقلق. صرت ألمح انهيار أبي حين تقع عيناه في عينيّ، إنهما محروقتان حزناً وكآبة. لقد كبر خلال هذه الأيام عشر سنين دفعة واحدة».

غادرت البيت. صنعت إطاراً لصورتي مع أبي، واشتريت ورداً، ومجلات وصحفاً، وكتباً. وحين عدت إلى البيت وضعت صورتي مع أبي مكان صورة أمي القديمة «أنا متأكدة أنه لن يقول شيئاً. سيفرحه أن أعيد الحياة إلى هذا المكان الذي ظل ميتاً طوال عامين».

وزّعت الورد في أماكن مختلفة.

حان وقت الغداء وقد تأخر أبي قليلاً. وعندما جاء كان يحمل زهوراً. كم فرحت عندما لم أجد بينها زنبقاً ونرجساً. «وأخيراً يا أبي بدأت تقترب مني». ضحك حين لاحظ أن ورداً جديداً يملأ المنزل، وهمس:

ـ يوماً ما سنفتتح محلاً لبيع الورود.

أخذت باقة الورد من يده وقبّلته. كان متهدماً كصخر فتّته لَغَم. بدا لي لأول مرة أنه أصبح كهلاً بالفعل «أمي

لم تستطع أن تقتل شبابه، وهاأنا قد قتلتُ شبابه في بضعة أيام. كم أنا مجرمة. ولكن ماذنبي أنا؟ الذنب يقع على عاتق الدكتور فؤاد الذي كشف السر عن قلبي المتعب. الذنب يقع على قلبي». ومن غير ما شعور أمسكت بنهدي الأيسر وشددته بقوة فتألمت «لو أستطيع أن أمزّقك بأسناني يا قلبي».

شاهد أبي الصحف والمجلات فأخذ صحيفة ودخل غرفة الطعام. لحقت به وهمست:

ـ أبي اخلع ملابسك.

ـ أم حسن هنا؟

ـ إنها تعدَ لنا الطعام.

ـ تعالي خذي الجاكيت. سأتصفح هذه الصحف ريثما يأتي الطعام.

ـ كما تريد يا أبي.

نزعت عنه الجاكيت، ثم هبطت إلى قدميه وفككت شريطي حذائه.. تركته لحظات ثم عدت بخفّيه وخلعت من قدميه الحذاء.

داعب رأسي بأصابعه ثم همس:

ـ كم أنت حنون. اللهً يحفظك لي.

ولاحظت أنه أخذ يهتم بقراءة شيء ما.

ثم التفت نحوي قائلاً بفرح:

ـ لقد نجحت أول عملية لزراعة القلب يا حنان.

دُهِشت «ما له ولهذا الأمر». تابع:

ـ اسمعي. أنا مطمئن أن الأمر ليس خطراً. على كل حال إذا احتاج الأمر فثروتي كلها سأنفقها عليك.

ـ يا أبي لماذا أنت خائف إلى هذا الحد، لا أظن الأمر خطيراً.

غابت عيناه في وجهي ثم همس:

ـ حنان، لست أريد سواك ولو في جزيرة مهجورة، ولو عاريين، ولو ونحن نمد أيدينا معاً للناس.

ـ أنت متشائم كثيراً يا أبي. لن نحتاج إلى كل ذلك. ألَمْ تسمع فؤاد يقول دائماً «بسيطة»..

ـ أرجو من اللهً أن تكون بسيطة.

وجمع راحتيه إلى صدره كما لو أنه سيصلي، وهمس:

ـ يا ربِّ احفظ لي حنان، لا تُصِبْها بمكروه. أرجوك.

لم أرَ أبي هكذا طوال مراحل حياتي يتساقط على هذا النحو. لقد انهار تماماً.

ـ يا أبي إن كنت تحبني حقاً، فلا تقلق هكذا.

ـ الحق معك يا حنان. الحق معك. ولكن من هو خارج المأساة ليس كمن في داخلها.

ـ بابا ليس في الأمر مأساة. أنت واهم.

واقتربت أم حسن بأطباق الطعام، فأخذث من أمامه كومة الصحف، وبدأت أحثّه على الطعام:

ـ هيا يا أبي كُلْ.

لم يأكل بشهية. وشرد كثيراً قبل أن يهمس:

ـ في المساء سيمرّ علينا الدكتور فؤاد بسيارته، ثم نذهب معاً إلى عيادة صديقه الاختصاصي.

ـ طبعاً يا أبي. أنا واثقة أن الدكتور جوزيف سيرد لك اطمئنانك.

ترك أبي الطعام معتذراً بأنه شبع. عاد إلى الصالون حاملاً معه الصحف وترك المجلات. لحقت به. قال:

ـ حنان، لو تسمحين لي بقراءة الصحف. خذي أنت المجلات، وارتاحي في فراشك ونامي إن استطعت. سأنام أنا أيضاً.

تركته. أخذت المجلات إلى غرفتي. واستلقيت على السرير.

أخذت أقلّب صفحات المجلة الأولى وأتفرّج على الصور، ولم أقرأ شيئاً. كانت الحروف تزوغ أمام عيني. تصوّرته في مثل حالتي يتقلّب على فراشه كما أتقلّب. لا يستطيع أن يقرأ شيئاً، وتزوغ الأحرف أمام عينيه وتهتز. وددت لو أذهب إليه فآخذ الصحف من يديه وأقذفها بعيداً، وأرتمي على صدره وأشبعه تقبيلاً. اضطربت عندما فكرت بتنفيذ ذلك. رميت المجلات جانباً. ورحت أعضّ طرف اللحاف بينما كانت الدموع تنساب على خدي مالحة الطعم.

عندما أيقظني أبي، كان المصباح الكهربائي يغمر غرفتي بالنور.

جلس على حافة السرير، ومسح وجهي براحته الحنون. كان يرتدي ملابسه، وقد ارتمت على صدره ربطة العنق السوداء ذات الخط الأحمر الرقيق. فرحت، وحسدت ربطة العنق «ستعانقه وترتمي على صدره كثيراً».

قال أبي:

- كأنك لم تنامي دهراً. استيقظي يا عزيزتي، استيقظي. الساعة الثامنة.

جلست وعانقته.

- هل خرجتَ؟

- خرجتُ إلى المكتب وعدت، وأنت ما زلت نائمة.

- الدفء يُرخي الأعصاب يا أبي.

- صحيح. أتمنى أن لا أذهب إلى المكتب بعد الظهر. ولكن القضايا كثيرة وعليّ دراستها يومياً.

صمت لحظة، ثم نظر إلى ساعته وقال:

- لم يبق لدينا وقت كاف. فؤاد سيصل بعد قليل.

أسرعتُ. ركضت إلى المغسلة وعدت بعد قليل. همس:

- سأنتظرك في المكتب. أسرعي يا حنان.

- لماذا لا تبقى هنا؟

ـ لا. ارتدي ملابسك. سأقرأ شيئاً.

«لماذا لا تبقى هنا تنظر إليّ كيف أخلع ملابسي، تنظر إلى جسدي الذي يشتهيك. أمازلت خائفاً أن تبوح، كما أنا خائفة أن أبوح».

خرج ونظراتي تشيّعه، وتلتهم خطواته.

ارتديت «بلوزتي» الخضراء وتنورتي السوداء. وضعت أحمر على شفتيَ، وكحلت عينيَ «جميلة أنا، ألا تشتهيني يا سيدي؟ صرت ناضجة أكثر». ثم أسرعت إليه في مكتبه فابتدرني:

ـ سيصل فؤاد بعد لحظات. لقد هتف لي.

ووقعت عيني على ديوان نزار، وهو يتصفَحه، فسارعت إلى أخذ الكتاب من يده وقلت:

ـ بابا، سأدلَك على قصيدة جميلة.

وأخذت أقلَب الصفحات حتى انتهيت إلى الصفحة المطلوبة:

ـ اسمع يا أبي:

«وأعدَ... أعدَ
عروقَ اليد
فعروق يديك
تُسلّيني
وخيوط الشيب
هنا وهنا

تنهي أعصابي
تنهيني
دخَن
لا أروع من رجل
يفنى في الركن
ويفنيني...».
«أحرقني...

وقُرِع جرس الباب، فشتمت الدكتور فؤاد في أعماقي ألف شتيمة. أخذ الكتاب من يدي، وأعاده إلى مكانه. ثم قال:

ـ أسرعي افتحي الباب. إنه فؤاد.

أسرعت، وخطا أبي ورائي. فتحت الباب، وأطلّ فؤاد بوجهه المبتسم أبداً:

ـ مرحباً يا حنان. كيف أنت؟

ومد أبي يده مرحباً:

ـ أهلاً فؤاد. أهلاً. سنتناول القهوة معاً ثم نذهب ما رأيك؟

ـ لا بأس.

وفيما هو يشدّ فؤاد تطلع نحوي. فهمت، وأسرعت إلى المطبخ لأصنع القهوة. وعندما عدت وبيدي صينية القهوة، التقطت الكلمات الأخيرة:

ـ أنا خائف عليها يا فؤاد. خائف. صدّقني لم أعد أستطيع النوم.

ـ بسيطة يا عزت، بسيطة.

وعندما لمحاني، قال فؤاد كأنه يتم حديثاً سابقاً:

ـ ثم قالوا إنك أذكى محام عرفوه، وإن الإنسان صار يطمئن عندما يفتح لك قلبه وأسراره.

حاول أبي أن يبدو مبتسماً حين قدّمت لهما القهوة. قال فؤاد:

ـ أبوك قال لي إنك تكتبين الشعر يا حنان.

ـ ليس دائماً.

ـ أرجو أن تتاح لي فرصة لأقرأ إنتاجك. أنا أحب الشعر والشعراء.

وتذكرت أن فؤاد يُعدّ أديباً يشار إليه. فهو بالإضافة إلى مهنته كطبيب له العديد من الكتب المترجمة والمقالات المنشورة والأحاديث المذاعة.

ـ وأنا أرجو ذلك يا دكتور.

نظر بعد قليل إلى ساعته ثم قال:

ـ أظن أن علينا أن نتحرك.

قمنا. خرجنا من البيت. وانطلقت بنا سيارة فؤاد.

استقبلنا الدكتور جوزيف استقبالاً حاراً. كانت عيادته جزءاً من منزله. بدا الطبيب أنيقاً، جوه دافئ، مرن الحركة، وأصغر سِناً من الدكتور فؤاد ومن أبي. تحدثوا

كثيراً في أشياء مختلفة وفجأة وجّه الدكتور جوزيف الكلام إليّ:

- قولي يا آنسة بماذا تشعرين؟

- لا أشعر بأي انزعاج!

- تعالي إلى العيادة، لنرى.

تبعته، كما تبعني أبي والدكتور فؤاد. بدأ الطبيبان بفحصي معاً، بينما كان أبي ينظر إلينا واجماً، يراقب كلماتهما بحذر. قال الدكتور جوزيف أخيراً مخاطباً فؤاد:

- أعتقد أنها الحالة نفسها التي ذكرتها. ما رأيك، سنخطط لها القلب، وغداً نصوّره ونحلّل الدم والبول، ثم نقرر معاً ما الذي يجب أن نفعله.

- لا بأس.

طلب مني الدكتور جوزيف أن أنزع بلوزتي عن صدري فامتثلت له. وأخذ يلصق بعض الأشرطة تحت ثديي الأيسر، ثم في يديّ، ثم في قدميّ. ووقف قرب آلته طالباً مني أن أتنفس تنفساً طبيعياً.

لم يكن يهمني شيء سوى الخوف على أبي. كان قلقاً وخائفاً، وينتظر كلماتهما كما لو أنه في القفص ينتظر حكم القاضي.

بعد قليل، خلع الدكتور جوزيف الأشرطة عن جسدي، وجلس خلف طاولته وكتب ورقة ثم أخرى وأعطاهما

إلى أبي:

ـ هذه للتحليل، وهذه للصورة.

كان أبي خائفاً، خائفاً.

ـ ماذا دكتور طمئني؟

ـ ليس في الأمر خطر، في ما أظن. ولكن بعد التصوير والتحليل سنقرر ما يجب أن نفعله.

وحاول أبي أن يستأذن في الخروج، لكن فؤاد صاح به:

ـ عزّت، نحن نزور الدكتور جوزيف، بسيطة.

اعتذر أبي. وعندما عدنا إلى الصالون قال الدكتور جوزيف مخاطباً أبي:

ـ أمراض القلب صارت من ميزات هذا العصر. ثم إن العلم يتقدم ولم يبقَ هناك خطر على حياة الإنسان. لماذا الخوف؟ هناك حالات أشد خطراً وأصحابها مازالوا يتمتعون بصحة جيدة.

وقال الدكتور فؤاد:

ـ لا تؤاخذه، إنها وحيدته. وليس له من رابط في الدنيا سواها.

ـ من أجلها يجب أن لا يقلق.

ثم تابع ممازحاً:

ـ الفتيات يحببن «الموضة». والموضة أن تبقى الفتاة الجميلة هكذا، أقرب إلى النحول، والقلب المتعب لا

يسمح للفتاة الجملية أن تسمن.

التفت نحوي:

ـ أليس كذلك يا آنسة؟

أردت أن أزيل بعض قلق أبي فقلت:

ـ أجل. أنا فرحة جداً لأنني نحيلة. ما أبشع المرأة السمينة.

وقدمت لنا الخادمة القهوة، فأخذ أبي يرشف فنجانه بسرعة. ولم يمضِ وقت قليل حتى وقف مستأذناً بالانصراف. رافقنا الدكتور فؤاد، وعندما ركبنا إلى جانبه قال أبي:

ـ فؤاد، قل لي ماذا وجدت؟

ـ أوه إنك تثرثر أحياناً بلا فائدة. لقد أفسدتك المحاماة فصرت تريد لكل شيء تفسيراً. ألم أقل لك بسيطة.

وقلت أنا:

ـ أرجوك دكتور، ما الذي ظهر في التخطيط؟

ـ ظهر أن قلبك مضطرب، وضرباته ليست منتظمة، وسريعة، والعقاقير ستحل كل هذا. غداً يجب أن تحللي الدم والبول، ثم اذهبي إلى الدكتور إحسان وصوّري، وسنجد لكل حادث حديثاً.

أمسكت بيد أبي وضغطت عليها بحنان. كانت أضواء المدينة تتلألأ، والشوارع مبتلة بعض الشيء، فرحت

أراقب حركة الحياة التي لا تهدأ ووجوه الناس الكثيرة التي تنخطف من أمامنا كالأشباح.

لم يذهب أبي إلى مكتبه اليوم. لمحت في عينيه غربة طفل وحيد. وبدا أكثر تهدّماً من جبل فجّره بركان. لعنت قلبي كثيراً. أنا التي حاولت أبداً أن أخلّص أبي من أحزانه وذكرياته، هاأنا أحمل له حزناً جديداً مع خوف عليَ وقلق دائم.

حقدت على نفسي. يجب أن لا أراه هكذا. لا، سأعيد محاولتي، سأخلّصه إذا احتاج الأمر حتى من همومي.

كان يدور في المنزل كأنه يبحث عن شيء فقده، وكنت ألاحقه بنظراتي دون أن يشعر. أخيراً لم أعد أحتمل فلحقت به إلى مكتبه. كان يجلس في مقعده الجلدي وقد دفن وجهه بين راحتيه. وعندما شعر بخطواتي رفع رأسه، وكان ثمة شيء يلمع في عينيه كأنه يودّ أن يبكي. ندمت. ليتني لم أدخل. حاولت أن أردَ خطواتي إلى الوراء وأخرج، ولكن سمعت صوته ضعيفاً كأنه يجيئني عبر قرون.

- حنان. تعالي.

اقتربت. جلست على مسند المقعد وأخذت رأسه إلى صدري، وغرزت أصابعي في شعره وصرت أحكّ جلدة رأسه. استسلم مثل الأطفال. مضت فترة طويلة لم نقل

فيها شيئاً. لأول مرة أحسست بحاجتي العميقة إليه. لو حدث له شيء لكنت أنا التي انتحرت، أنا التي سأحرق العالم، سأجنّ، سأشوّه وجوه الناس بأظافري. لا يا أبي، يجب أن أرحل أنا قبلك أيضاً. أنا متأكدة من أنك لن تتخلى عني حتى بعد موتي، ولا شك في أنك لن تسمح لامرأة غريبة بأن تدخل بيتك».

فجأة خطرت في بالي فكرة: «لأجرّبه، لأضعه على المِحكّ».

ـ بابا.

وكأني أيقظته من أفكاره، رفع رأسه.

ـ نعم يا حنان.

ـ بابا، أفكر في أمر مهم جداً.

ـ قولي.

ـ لماذا لا تتزوج؟

رمقني بهدوء، ثم أجاب بكلمات متقطعة حزينة:

ـ أنا... أتزوج يا حنان... هل جننت؟

ـ ولم لا؟ أنت بحاجة إلى امرأة تعيش معك.

شدّني إلى حضنه. عانقته. وحدقت فيه طويلاً.

قال أخيراً:

ـ ألم نتفق معاً أن لا نتزوج. فإذا كنت أنت ستتزوجين فسأفكر في الأمر.

«يفكّر في الأمر».

ـ أبداً. أنا لن أتزوج. لقد وهبتك حياتي.

شدّني إلى صدره وعانقني.

ـ إذن ما زلنا متفقَين على عدم الزواج. خفت أن يكون ثمة شاب قد أخذك مني أخيراً.

ـ لا. ليس هناك أي شاب يستطيع أن يأخذني منك ولكن، بابا، أنت بحاجة إلى زوجة.

ـ ما الذي يجعلك تصرّين على هذه الفكرة. هل سترضين أن تعيش معك هنا امرأة غريبة تحلّ محلّ أمّك؟

«محلّ أمي».

ـ أبداً، لا محلّ أمّي ولا محلّي.

غامت عيناه في أسى مفاجئ.

ـ محلّك. من يحل محلك أنت يا حنان؟

صمت. بدا كما لو أنه يستعيد قواه التي انهارت فجأة. أمسك وجهي بين يديه، ثم همس وهو يتماسك:

ـ أنت كل أملي في الدنيا. من دونك سأسقط، سأصير رماداً، سأموت. إذا كنت تحبينني فانزعي من رأسك هذا التشاؤم.

ـ ولكن أنت المتشائم يا أبي. لقد انهرت، فجعلتني أنهار معك.

ـ آه يا حنان. لا أستطيع أن أزيد. لا أستطيع أن أخفي شعوري. أنا خائف عليك. لأجل هذا أنا لا أنام. إنني

أستعرض في ذهني كل حالات أمراض القلب التي عرفتها ولأجل هذا أنا خائف.

رفعت وجهه نحوي. كم هو بريء هذا الوجه، كم هو حنون وطفولي.

أعدت وجهه إلى صدري وضغطت عليه.

ـ يا أبي الحبيب.

لفَ ساعديه حول ظهري. نسيت العالم. أحسست أننا في جزيرة مهجورة. فرحت. رفعت وجهه مرة أخرى. ووددت لو أقبله وكدت أفعل لولا أنني اصطدمت بعينيه، وبدا لي أن نظراته تؤنبني. وسرعان ما قال:

ـ حنان.. يجب أن تجري تحليلاً للدم هذا الصباح قبل أن تأكلي شيئاً. هيّا ارتدي ملابسك.

نزلت عن حضنه، فشعرت كأنني أفارق الدنيا.

ذهبت إلى غرفتي حيث ارتديت ملابسي ثم عدت إليه. كان قد ارتدى ملابسه وأخذ يدخن.

ـ أنا جاهزة يا أبي.

نزلنا إلى الشارع معاً. كانت السماء قد أمطرت ثم كفَّت، وراحت خيوط الشمس تشق طريقها بين الغيوم المتكاثفة بصعوبة. كانت خطواتي ثقيلة فأمسك بيدي وكانت باردة كالصقيع. مر أمامنا شاب وفتاة، كانت خطواتهما تقفز كالعصافير فوق المياه العكرة المتجمعة هنا وهناك. تطلعت إلى أبي. «يا إلهي كم كبِر». وشعرت

بأن خطواتي أثقل من خطواته. وفجأة انهارت أمامي الأعوام كأنها الأوراق المتساقطة من شجر الأرصفة. رفعت يدي إلى قلبي دون أن يشعر، وكانت ترتجف كما لو أنها يد امرأة مُسِنَة، وكان قلبي يخفق كأنه أحسَ بالهرم المبكّر.

صرت امرأة هَرِمَة، إذن.

حاولت أن أملأ رئتي جيداً بالهواء، وشعرت بأنني لا أقدر، وأنني أبذل جهداً في التنفس... في الماضي كثيراً ما كنت أحس هذا الإحساس، ولكن لم يكن يخطر في بالي أن قلبي سيغدر بي هذا الغدر المفاجئ. أحسست بحاجة شديدة إلى البكاء، لكنني تمالكت نفسي وأخذت أشغل نظري بالأشجار المصفرة بعض أوراقها. كان الشارع صامتاً كالمقابر، ومع أن الجو أخذ يصحو فإن الشارع كان فارغاً إلا من أشباح بعيدة تعبره من الرصيف إلى الرصيف مسرعة كأنها تهرب منه.

ولا أدري لِما أحسست بهذا الشعور المفاجئ، فشددت يدي على يد أبي دون أن أنظر إليه، ولكني أحسست أن نظراته تحيطني باطمئنان. إنه إلى جانبي، وهذا يكفي.

عندما اقتربنا من ساحة البنك المركزي قال مشيراً إلى بناء ضخم:

ـ أظن أن مختبر الدكتور إحسان هنا.

وأجلت النظر في البناء.

- أجل. هذا اسمه معلّق على الشرفة الثانية.

ولجنا مدخل البناء ودخلنا المختبر حيث استقبلتنا فتاة ترتدي البياض، أخذت من أبي الورقة ثم أدخلتني إلى مكان آخر. جاءت فتاة أخرى وطلبت إليّ أن أكشف عن ذراعي، ثم ربطت ذراعي بخيط مطاطي، وأدخلت الحُقْنة في عِرق يدي المنتفخ وسحبت دماً حتى امتلأت. أخرجت الحُقْنة وغادرتْ. قالت الفتاة الأخرى وهي تأخذ زجاجة البول:

- سيكون التحليل جاهزاً في الساعة الخامسة.

أخذني أبي من يدي وحين هبطنا الدرج، صحت به:

- أكاد أسقط يا أبي.

ضمّني إلى جانبه.

- لا تخافي. لقد ذهب منك دم كثير.

وأشار إلى سيارة أجرة. وعندما حوتنا السيارة قال للسائق:

- خذنا إلى شارع الفردوس.

همس لي أبي:

- أرجو أن تكوني الآن أفضل. سنذهب لتصوير قلبك.

- كما تريد.

عندما وصلنا شارع الفردوس نزلنا من السيارة، وأخذ أبي يتفرس في عناوين العمارات، ثم قال مشيراً إلى مدخل بناء:

ـ أظنّ هنا.

في عيادة الطبيب وجدت أناساً كثيرين ينتظرون، وجلسنا حيث أشارت لنا ممرضة. تساءلت: هل كل هؤلاء يشكون عِلّة في قلوبهم؟ أعدت السؤال همساً على أبي، قال:

ـ ربما بعضهم، وبعضهم يشكون من أمر آخر في المعدة أو في الأعصاب أو العضلات. تناولت إحدى المجلات المرمية على المنضدة الصغيرة ورحت أتصفحها. انتظرنا طويلاً قبل أن تطلب الممرضة منا الدخول.

استقبلنا طبيب قصير القامة، بشوش الوجه، يبدو أنه عرف أبي للتوّ.

ـ أهلاً أستاذ عزت، أهلاً. هل انتظرت طويلاً؟

ـ طويلاً جداً.

ـ يا رجل كان يجب أن تخبرني، أو تهتف لي، إذن لكنت أدخلتك فوراً.

ورنّ جرس الهاتف، فأسرع الطبيب إليه، وهمس أبي:

ـ لا أذكره. ربما كنا معنا في الجامعة.

وعندما عاد الطبيب أبرز له أبي الورقة. قال الطبيب وهو يدقق فيها:

ـ خيراً. الآنسة ابنتك؟

هزّ أبي رأسه بالإيجاب.

- الاسم الكريم يا آنسة.

- حنان.

اقترب من مكتبه وتناول زجاجة فيها سائل أبيض صبّ بعضه في ملعقة صغيرة، وجاء إليّ:

- من فضلك اشربي هذا الدواء.

أخذت الملعقة من يده وابتلعت ما فيها، فصبّ لي واحدة أخرى شربتها وأنا أمتعض وأحسَسْت أنني أبتلع جصّاً.

طلب إليّ الطبيب أن أخلع ملابس النصف الأعلى ثم أوقفني خلف آلة ضخمة. قال:

- اقطعي تنفّسك.

وتوقفت عن التنفس لحظات، وضغط هو على زرّ معيّن ثم قال:

- ارتاحي.

بعد أن ارتديت ملابسي، سأله أبي عن موعد انتهاء الصورة. قال:

- في المساء أو صباحاً أفضل.

قال أبي:

- سآتي صباحاً.

خرجنا.

كنت متعبة فاقترح أبي أن نأخذ سيارة ونشرب شيئاً في «الكاندلز». قلت:

ـ لا. دعنا نمشِ. أنا أحب المشي.

ـ ولكنك متعبة.

ـ سأتنشط.

ـ كما تريدين.

مرّت بنا وجوه كثيرة، فتيات مُتأنّقات، شبان وفتيات، كهول ونساء محجّبات. تساءلت في نفسي: «هل لكل واحد من هؤلاء مصيبة يعانيها؟ لماذا أنا بالذات يعكّر قلبي أيام حياتي؟».

كأنّ أبي قرأ أفكاري. سألني:

ـ بماذا تفكرين يا حنان؟

ـ بابا، هل يطول مرض القلب. أقصد هل يُشفى الإنسان منه نهائياً؟

لم يجب للتوّ. قال:

ـ العلم يتقدم يا حنان. ربما نسمع اليوم نبأ يقول إنهم قضوا نهائياً على أمراض القلب.

بعد لحظات كانت تضمّنا طاولة الكاندلز. طلب إلى النادل أن يسرع بجلب كأسين من عصير البرتقال.

وشربت كأس البرتقال. كان جو المكان دافئاً، وثمة عاشقان في الزاوية البعيدة يتسامران همساً، حسدتهما «لو أن في قلبها شيئاً لهجرها هذا الشاب بالتأكيد».

قال أبي:

ـ هل شعرت بتحسّن؟

- أجل.
- الحمد للهً.
- سنرتاح قليلاً، ثم نذهب إلى المكان الذي تشائين.
- المكان هنا جميل. سنبقى هنا. لتناول الغداء.
- كما تريدين.

أخرج أبي علبة سجائره، وقدّم لي سيجارة قائلاً:
- خذي دخّني.

ضحكت.
- أنا لا أدخّن يا أبي..

لم يقل شيئاً، أشعل لفافته. وكان يودّ أن يقول شيئاً لولا أن أغنية فيلم «رجل وامرأة» انطلقت تملأ جو المطعم، فارتحل أبي إلى مكان ما. أما أنا فقد أخذته معي. ضممته إلى صدري وغرقت في اللحن الجميل.

الصورة والتحاليل، ها قد وقعت فريسة.

أبي حزين مثل نجم هوى.

عيناه تزيغان حول الطبيبين وهما يحدّقان في الصورة المعلّقة على الكاشف الكهربائي، ثم يعودان إلى أوراق التحاليل.

كنت وأبي غريبين عنهما.

كانا يتحدثان بتعابير طبية كثيرة، لم أفهم منها إلا القليل: القلب متضخّم والدسام التاجي متضيّق ومتكلّس، سرعة نبضه خطرة، الأذينة اليسرى لا تعمل جيداً، أملاح كثيرة في الجسم، روماتيزم في الدم بنسبة كبيرة، قصور واضح في وظائف الجسم كلها، الكريات البيض أضعاف أضعاف الكريات الحمر.

يقلّب أحدهما شفته مستغرباً. قال الدكتور جوزيف:

- كان يجب أن تكتشفوا هذه الحالة قبل زمن؟

رمق الدكتور فؤاد أبي ثم أجاب:

- أظن أنها لم تكن تشكو شيئاً. وأنا لم أفحصها إلا قبل أيام، فشككت، وجئنا إليك.

- كان صباها يقاوم.

ثم أردف:

ـ ولكن عندما تتقدم في العمر يصبح وضعها خطراً.
صمت. رمقني بعينين صارمتين. ثم تابع:
ـ على كل حال سنقاوم. ومن حسن الحظ أن أستاذاً ألمانياً في جراحة القلب سوف يزورنا خلال الأسبوع المقبل، وسنعقد جلسة معه ونتشاور في الموضوع.
قال الدكتور فؤاد:
ـ ربما تقصد أستاذ جراحة القلب في جامعة لايبزغ.
ـ أجل هو البروفسور هيربست هايدن.
ـ سيكون من حُسن حظنا.
وأخذ الدكتور جوزيف قلماً وراح يكتب العديد من أسماء الأدوية وهو يسأل زميله:
ـ ما رأيك؟ صنف كذا أفضل لمقاومة الالتهاب. صنف كذا سيقوي الدم وسيكثر من الكريات الحمر. صنف كذا لإيقاف الروماتيزم و...
وابتلعني الخوف. أحسست أنني وأبي في دوّامة. كان منهاراً تماماً وهو يسمع ولم يستطع أن يضبط نفسه، فصرخ كاليائس:
ـ أنا هنا يا جماعة. قولا لي شيئاً.
ردّ الدكتور فؤاد:
ـ بسيطة يا عزت، بسيطة. لا تقلق.
وجّه أبي الحديث إلى الطبيب الآخر:
ـ دكتور جوزيف أرجوك، قل لي ما هي الحالة تماماً.

ـ لا تخف يا أستاذ. ليس في الأمر الخطر الذي تتصوّره. لي صديق يعاني حالتها منذ أربعين سنة ومازال يعيش.

«يريدون أن أعيش وأنا أسيرة العقاقير والمعالجات والحقن».

ـ ثم يجب أن تطبّق هذه المعالجة حرفياً وبانتظام.

هذه الحُقَن كل يومين زَرْقة.

الحبوب هذه تأخذ منها ثلاث حبات بعد الطعام، وهذه ثلاثاً قبل الطعام، وهذه ثلاثاً في أثناء الطعام.

هذه الحُقن كل عشرة أيام زرقة.

هذا الشراب ملعقة صباحاً وملعقة مساءً.

هذه الحبوب حبة كل ست ساعات.

هذه الحبوب...

«راح صوت المطر في الخارج يقرع في رأسي. واختلطت عليّ الأشياء. وتدلّى المصباح الكهربائي أمام عيني كالمشنقة. ما أبشع لعبة الموت والحياة. هه جامعة، وأحلام وآمال، وعشق غريب، وجسد أبي يسيطر عليّ. ثم هذه الكلمات تُقال ببساطة، قلب متورّم، ضيق وتكلّس في الدسام التاجي. ما الذي بقي لك يا حنان؟ أينما تذهبي فإنك ستحملين معك هذه الصيدلية المتنقلة، قبل الطعام وأثناء الطعام وبعد الطعام. كل ست ساعات، في الصباح والمساء، زرقات

في العضل، زرقات في العروق، شراب أبيض للصباح، شراب أصفر للمساء. وساعة منبّهة لتوقظك كل ست ساعات.

وأخذت كلمات الدكتور جوزيف تتردّد كالصدى في أعماقي:

«يجب أن تطبَق هذه المعالجة حرفياً... وبانتظام».

في الليل والنهار إذن. وأنا أحدّق في هذه الأدوية وأنظر في الساعة تمنيت أن أهرب للتوّ. وقفت. كنت مضطربة كما لو أن أصابعي تتساقط مني.

شكر أبي الدكتور جوزيف، ومدّ يده إلى حافظة نقوده ودفع المبلغ المطلوب. وحين خطونا خارج العيادة، سمعت صوت الدكتور جوزيف ينادي فؤاد:

ـ دكتور فؤاد سأتصل بك عندما يصل البروفسور هايدن.

ـ آه. شكراً.

كان الصمت يخيّم علينا. وكانت السيارة تنطلق بطيئة. والمطر يهطل بغزارة، وصوت مسّاحات السيارة يضرب مثل قلبي. حاول الدكتور فؤاد أن يقول شيئاً:

ـ عزت.. المصعد اللعين لم يعمل في البناية حتى الآن يجب أن نشكر تلك الظروف، لولاه لما اكتشفنا الأمر.

«ليتنا لم نكتشف الأمر أبداً. ليتنا لم نَزُرْك أبداً. كنت سعيدة، كنت سأفوز به وكنا سنقطع رحلة الحياة معاً

دون منغصات. الآن، بعد كل هذه الضربات على الرأس، ما الذي يمكن أن نعمله؟ ما الذي يمكن أن ينقذ أبي من انهياره وهو الذي صار يريد إنقاذي؟».

ولا أدري لماذا ألحّت عليّ فجأة صورة أمي في إطارها الأسود، ولم أصدّق حين لمحت في عينيها تعبيراً غريباً كأنها تشمت بي.

سأل فؤاد أبي أخيراً:

- إلى أين ستذهب يا عزّت؟

- لا أدري. نريد أن نحصل على الأدوية.

- آه صحيح. بسيطة. سنبحث عن صيدلية مناوبة.

وأخذت السيارة تلفّ بنا شوارع المدينة الممطرة. أخيراً أوقف فؤاد سيارته بمحاذاة الرصيف، ونزل ولحقه أبي طالباً إليّ أن أبقى.

دخلا الصيدلية وعادا بعد حين وبين يدي أبي كيس أصفر كبير.

انطلقت السيارة. حاولت أن ألهي نفسي بالاستماع إلى المذياع، أشعلته وأخذت مؤشره إلى اليمين، ثم إلى اليسار، ثم إلى اليمين.

«لا تندهي... ما في حدا».

أبعدث الصوتَ الحزين.

«أقول وقد ناحت بقربي حمامة».

أبعدث الصوتَ الحزين.

أغنية إنكليزية، صوت امرأة مبحوح كأنها تبكي.

«لا تأخذوني بعيداً
بعيداً عن حبيبي لا تأخذوني
إذا رحل بعيداً
فسأموت
إذا رحلت بعيداً
فسيموت
دعونا معاً نشربْ من كأس واحدة
ننَمْ في فراش واحد
في غرفة واحدة
حبيبي له عينان كالصقر
وأنا يمامة بيضاء
تحت ظل جناحه أعيش
يحميني. يحتويني بين ذراعيه
لا تأخذوني بعيداً
بعيداً عن حبيبي لا تأخذوني».

أمسكت بيد أبي. بينما همس الدكتور فؤاد:

ـ ما أجمل هذه الأغنية يا حنان. هل انتبهت إلى كلماتها «المجنون كأنني أنا التي كتبتها. إنها تعبِّر عن حالتنا».

ـ ليس تماماً.

نطق أبي بحزن:

ـ إذا غاب بعيداً
فسأموت
إذا غبتِ بعيداً
فسيموت
دعونا معاً نشرب من كأس واحدة».

قال فؤاد:

ـ هذه البساطة في الكلمات تأسرك. هذا هو الفرق بين أغنياتنا وأغنياتهم.

اقترينا من منزلنا. وعندما توقفت السيارة قال أبي:

ـ انزل يا فؤاد. ابقَ عندنا بعض الوقت.

ـ لا. شكراً يا عزت. أنا على موعد. والسيدة تنتظرني.

كنت قد ركضت حتى مدخل البناء، وبين يدي رفاقي الجدد، أدويتي، عندما صاح فؤاد:

ـ حنان طبّقي ما قاله الدكتور جوزيف تماماً.

وأسرع أبي نحوي وقد بلّل المطر وجهه وشعره. لوّح للطبيب ثم صعدنا الدرج.

وعندما فتحنا الباب، وهبّ علينا دفء منزلنا، شعرت بارتياح.

قال أبي محاولاً أن يبدو مرحاً:

ـ هه حنان. ستسمعين الكلمة.

ـ قُل يا أبي.

ـ يجب أن تطبّقي المعالجة كما أكدوا.

ـ طبعاً يا أبي. طبعاً.

ـ ثم تطلبين إلى أم حسن إن كانت تستطيع أن تبقى في المنزل منذ الغد.

ولكن لا ضرورة لذلك. وقد لا ترضى.

ـ لا. إذا لم ترضَ فسأبحث عن غيرها. منذ اليوم لن تمدّي يديك إلى شيء، ومنذ الغد سأبحث لك عن ممرضة أيضاً تعيش معنا هنا لتشرف بنفسها على تطبيق المعالجة.

«يا إلهي.. ها قد ابتعد عني كالعصفور الهارب من القفص».

ـ ولكن، يا أبي، لست بحاجة إلى كل هذا.

ـ لا. أنا أريد أن أطمئن. الممرضة وحدها تستطيع أن تطبّق هذه المعالجة كما يريدونها.

أردت أن أخفي اضطرابي. «أناس آخرون يشاركوننا في المنزل. يا إلهي، ممرضة وأم حسن. والضجيج القديم. يا أبي تهرب مني عن قصد».

تشاغلت بإخراج عُلب الأدوية من الكيس، عُلب صفراء وحمراء، صغيرة، ومستطيلة، ومربّعة.

قال أبي:

ـ لقد كتب لك الصيدلي على كل عُلبة كيفية استعمالها فانتبهي. وأرجو أن أوفق في العثور على ممرضة بسرعة.

كان حزيناً مثل شجرة يابسة في صحراء. يداه مسدلتان إلى جانبيه كأنهما جثتا طفلين مشنوقين.

اقتربت منه.

لكنه أخرج علبة سجائره وأشعل لُفافة وأخذ ينفث مع دخانها وِزْرَ صدره الثقيل. أحسست أنه يتعذب وأن آلاف الكلمات الحزينة تمطر في أعماقه.

لقد بدا لي الآن كأنه التحق بشتائه الأبدي. شبابه الذي عاش أياماً قليلة بين يدي. ذاب كالثلج تحت حرارة الشمس، فبدا في سنه الحقيقية ضعيفاً، خائفاً، مضطرباً أبداً.

خفت عليه، أن يحدث له شيء مفاجئ.

اضطربت. أخذت أرتجف. ثم أجهشت بالبكاء، فركضت إلى صدره ودفنت رأسي فيه.

صاح أبي:

ـ حنان، يا حبيبتي، لا تعذبيني.

وراحت يده تربّت ظهري بعطف بالغ. هدأت. أخذني من يدي إلى غرفتي. ثم قال:

ـ سأهيّئ بعض «الحواضر» وسنتناول العشاء معاً.

ـ أبي لن تفعل شيئاً أنت. أنا التي سأفعل ذلك كما هي العادة.

ـ لا يا حنان. قلت لك يجب أن ترتاحي بعد اليوم.

ـ يا أبي ليس في الأمر إرهاق. أنت تعقّد الأمور كثيراً.

لم يجب. تركني أخرج. ثم تبعني إلى المطبخ وأخذ يعاونني. ولكنني أدركت أن ثمة أشياء كثيرة تشغل فكره.

لم أقل شيئاً.

عندما جلسنا إلى الطاولة، ذكّرني بالحبوب، فاتّبعت التعليمات.

كان متعباً.

أما أنا فقد كان الحزن يأكل أضلعي.

لقاؤنا مع البروفيسور الألماني بعد قليل.

ما الذي سيقوله؟

وما الفائدة؟

عاد إلى بيتنا الضجيج. شاركتنا ممرضة سمينة تنقّ كالضفادع، ووافقت أم حسن على عدم مفارقة المنزل إلاّ لماماً، بعد أن تزوج حسن ولم يعد بحاجة إليها.

أما أبي فصار يتضايق كثيراً، وكلما جلس قليلاً في البيت يهتف إلى أحد أخوي، في حلب أو في اللاذقية، ويطلب إليهما السعي لنقلهما إلى دمشق، وكان يوحي إليهما أن لا مانع لديه من إقامتهما في منزلنا ريثما يجدان منزلين قريبين.

أإلى هذا الحد صار يخاف أن نبقى وحدنا؟ وأنا التي سعيت أبداً أن يضمَنا منزل واحد دون إنسان آخر، دون عين غريبة ترقبنا.

زارنا الدكتور فؤاد أمس، وحدّث أبي عن وصول البروفيسور الألماني، وأن الدكتور جوزيف وضع اسمي في رأس القائمة، وسيراني الطبيب الألماني قبل أي إنسان آخر. وقال أيضاً إن الطبيب سيلقي محاضرتين عن جراحة القلب في دمشق وفي حلب، وسيعرض

أفلاماً لعمليات عديدة سبق أن أجراها في القلب، وسيلقي هاتين المحاضرتين في العراق أيضاً، ثم سيعود إلى لايبزغ. وقال فؤاد إنّ من المفيد لنا جداً أن يطّلع على حالتي وهو سيقرر نهائياً ما الذي يجب عمله.

نظرت إلى الساعة. لقد حان موعد قدوم فؤاد. اقتربت من الشرفة ورحت أرقب قدومه، وعندما أطلت سيارته قلت لأبي:

ـ لقد جاء الدكتور فؤاد.

قال:

ـ هيا إذن. لن يستطيع أن يصعد. يجب أن نذهب فوراً إلى عيادة الدكتور جوزيف.

نزلنا الدرج. فتح الدكتور فؤاد باب سيارته الأمامي، وصعدنا. قال مرحّباً:

ـ أهلاً عزّت. كيف أنت يا حنان؟

قال أبي:

ـ أنا قلق يا فؤاد. قلق جداً.

ـ بسيطة، يا عزت، بسيطة.

وصلنا.

كانت العيادة ملأى بالناس، وأحسَسْت بعطف يغمرني تجاههم، كلّهم يحملون قلوباً متعبة ثم تذكرت شيئاً، وهمست في أذن الدكتور فؤاد:

ـ دكتور، هل فحصت قلب أبي؟

ضحك.

ـ قلب عزّت مثل الحديد. ما الذي خطر في بالك؟

لم أقل له إنني تذكرت كلمات أم حسن: «كل هؤلاء الناس لهم عِلّة في قلوبهم... أختي ماتت وهي في الخمسين، قالوا وقتها إن قلبها أودى بها، صدّقيني لو ذهبت إلى الأطباء لنغّصوا عليها حياتها، ولماتت في الوقت نفسه الذي ماتت فيه. كانت مبسوطة وسعيدة ولو ذهبت إلى الأطباء لقضت عمرها بين العقاقير والأدوية. الأعمار بيد اللهً يا ابنتي. يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيّدة. لا يذهب إلا الذي انتهى عمره».

فتح الدكتور جوزيف باب عيادته وتطلع نحو الصالون. لمحنا، فطلب منا الدخول إلى غرفة العيادة حيث رحّب بنا، ثم قال:

ـ يبدو أن البروفيسور سيتأخر قليلاً. لقد هتف لي. سننتظره هنا ليرى حنان أولاً.

التفت نحوي.

ـ كيف أنت الآن يا حنان؟

ـ أطبّق المعالجة حرفياً.

ـ هذا أفضل. «القلب ما معه لعبة».

صمت قليلاً وأردف:

ـ أنت بحاجة إلى راحة دائمة، لا دراسة، لا صعود أدراج، لا عمل في المنزل، لا سهر، لا تدخين، لا ذهاب

إلى السينما كثيراً، لا جلوس في أمكنة مكتظة بالناس. يجب أن يحيط بك الهدوء في كل مكان أنت فيه.

وشعرت بضيق «كيف سأقضي حياتي؟ إذا كانت على هذا النحو يجب أن أضع لها حداً؟».

قال الدكتور جوزيف فجأة:

ـ لقد وصل البروفيسور.

خرج، وعاد بعد لحظات مع رجل في الخمسين من عمره تقريباً، طويل القامة، أنيق الملبس، لا تفارق الابتسامة شفتيه، قدمه لنا بالإنكليزية:

ـ دكتور فؤاد، مستر عزّت، مس حنان.

أحنى الطبيب الألماني رأسه، ثم راح يعتذر للدكتور جوزيف عن تأخره. وأخيراً طلب إليه أن يرى الحالة الأولى، فأشار نحوي، وسألني إن كنت أعرف الإنكليزية، فهززت رأسي إيجاباً، بعد قليل أخذ يفحصني في كل أنحاء جسدي، ثم طلب التقارير والصور، وبعد تحديق طويل، قال شيئاً بالألمانية. ثم عاد وقال بالإنكليزية:

ـ لقد تأخرتم في المعالجة كثيراً.

التقطت الخوف من وجه أبي.. راح العرق يتفصّد من جبينه كأنه يحترق. أما أنا فصرت أرتجف. وحين التفت الطبيب الألماني نحوي همس مبتسماً:

ـ لا تخافي. أنت خائفة. هه..

ـ بروفيسور، أنا وأبي لنا قلب واحد، ألا تلاحظ أيضاً خوفه.

ضحك الأطباء الثلاثة. قال الطبيب الألماني دون أن ينظر إلى أحد:

ـ هذه الحالة بحاجة إلى عملية سريعة.

«انحنى كل شيء في أعماقي».

أردف:

ـ أنا مشغول الآن لمدة عشرة أيام، ثم أعود إلى لايبزغ. بعد خمسة أيام من عودتي أستطيع أن أستقبلها في مستشفى الجامعة.

صمت لحظات ثم قال:

ـ هل أنتم مستعدون؟

قال الدكتور جوزيف:

ـ طبعاً.

وسأل أبي بالعربية:

ـ هل ستنجح العملية؟

كانت كلماته ترتجف.

أعاد الدكتور جوزيف السؤال بالإنكليزية، فأجاب الطبيب الألماني:

ـ ثمانون بالمئة. ثم سيعود كل شيء إلى طبيعته.

ولم تعجبني كلمة «ثمانون بالمئة» فسألته مباشرة:

ـ بروفيسور، لماذا ليس مئة بالمئة؟

ضحك. ثم قال:

ـ هذه لغة الأطباء، يتركون بعض الأرقام لكل الاحتمالات.

ـ مثلاً.

ـ مثلاً يحدث أحياناً تميُّع في الدم. وهذه الحالة خارجة عن إرادتنا. لكن نادراً ما يحدث ذلك.

«خفت. قد يحدث تميُّع في دمي أنا بالذات».

فعاد الطبيب الألماني يطمئنني:

ـ لقد أجريت المئات من العمليات الجراحية، ولم تحدث حالة واحدة من هذا النوع.

ثم تقدم مني وربَت ظهري مداعباً:

ـ لا تخافي. ستعودين. وتتزوجين وتنجبين أطفالاً. أنا متأكد من ذلك.

رمقت أبي بعينين وجِلَتين، فابتسم حزيناً. ثم عاد الطبيب الألماني يقول:

ـ إذن سنلتقي بعد خمسة عشر يوماً.

قال الدكتور جوزيف:

ـ بالتأكيد، إلا إذا حدث طارئ ما.

ـ بالنسبة إلى الآنسة؟

ـ أجل.

ـ لن يحدث شيء، أنا متأكّد من ذلك.

والتفت نحوي:

ـ هل ستأتين وحدك؟

أجابه أبي:

ـ سأذهب أنا معها.

ـ أهلاً بكما... إذاً إلى اللقاء.

وأدركنا أن الزيارة انتهت، فخرجنا. وحين حملتنا سيارة الدكتور فؤاد، قال الدكتور مازحاً:

ـ ستريان أوروبا... جميلة هذه الرحلة... ليتني أستطيع مرافقتكما.

لم نقل شيئاً... عاد يقول:

ـ حنان لا تخافي... هذا الطبيب واثق بنفسه، عندما يقول إن العملية ستنجح، يعني ستنجح... إنك ستظلّين شهرين تحت المعالجة. ثم تستطيعان التنقل في مدن ألمانيا شرقها وغربها، وإلى سويسرا والنمسا وكلّ أوروبا إذا شئتما... عندما تخرجين من المستشفى ستحسّين أنك ولدت للتوّ، وكأنك تكتشفين العالم من جديد.

لم نقل شيئاً.

أوقف السيارة فجأةً وصاح غاضباً:

ـ عزّت... ماذا بك... أنت تقتلها بيديك. هي جريئة وأنت تقتل جرأتها... ما الذي حدث لك؟ يجب أن تشجّعها أنت بينما هي التي تشجعك. كأنك أنت الذي ستجري العملية... وكأنك خائف من عدم نجاحها.

أخذ أبي وجهه بين راحتيه ثم سمعنا صوته يجهش ببكاء شديد.

عدنا مع الدكتور فؤاد بسيارته. وضعت يدي على ظهر أبي وشددته نحوي، ثم همست في أذن الدكتور فؤاد:

- دكتور، أنا لست خائفة. صدّقني. ولكن من هو خارج المأساة ليس كمن في داخلها.

- اسمعي يا حنان، إياك أن تؤثر فيك حالته، إنه يحبك. وله الحق أن يخاف عليك هكذا، ولكن يجب أن لا يؤثر خوفه على معنوياتك. وأنت وحدك القادرة على إنقاذه من الحالة التي يتردى فيها.. غداً يجب أن تبدآ بمعاملة جواز السفر. وسوف أهتف إلى الدكتور جوزيف لنأخذ توصية من البروفيسور لسفارتهم هنا حتى لا تلاقيا شيئاً من المتاعب. بعد ثلاثة أشهر سنلتقي. وستكونين في حالة جيدة وسيعود أبوك إلى طبيعته الأولى وستبدآن حياة خالية من المشاكل والمتاعب.

هززت برأسي موافقة. بينما كان أبي يمسح ما بقي من دموعه. سمعنا صوته:

- الحق معك يا فؤاد. أنا جبان.

- إنني أقدر حالتك يا عزّت. لكنّ حنان متفهمة الموضوع تماماً وهي ليست قلقة مثلك. على العكس، خائفة عليك أكثر من خوفها على نفسها.

- أنا أحبك يا حنان أحبك.
- يا أبي من أجلك سأعيش. أنا أحبك أكثر.
قال فؤاد:
- ابدأ غداً يا عزّت. ولكن كيف ستحلّ مشاكل قضاياك.
- لا. هذا الأمر بسيط جداً. زملائي سيحلون كل هذه المشاكل.
- إذن عليك أن تبدأ غداً.
- بالطبع.
- ستُتاح لكما فرصة قد لا تُتاح في العمر كله. أرجو أن تقضيا وقتاً جميلاً.
وأخذت أحلم.
«إذا نجحت العملية فسنتجول معاً في بلدان غريبة، لا يعرفني فيها أحد ولا يعرفه أحد، سننام معاً في غرفة واحدة، سيستسلم لي، لابدَّ أن يستسلم لي، سنرقص، سنشرب، سنركض ركضاً، ستكون رحلة رائعة، وسيفرح بي عندما أعود معه معافاة. سأتخلَص من هذه الممرضة التي صارت ترافقني كظلي، سأتخلّص من ثرثرتها الثقيلة. ستعود أمحسن إلى بيتها. لن يعود أبي ويطلب من شقيقيَ أن يسعيا لنقلهما إلى دمشق. سأعود ملكة البيت وسيدته. سيعود إلى أبي شبابه، وسيعتني

بأناقته. سيعود إليّ أنا، إلى صدري وحدي، وسنبدأ حياتنا من جديد».

تركنا فؤاد أمام منزلنا. وعندما دخلنا المنزل، كنت سآخذ أبي من يده إلى غرفته، وأخلع عنه ملابسه، وأعتني به كطفلي، لولا أن هذه الممرضة اللعينة ابتدرتني قائلة:

ـ تأخرت. لقد حان موعد الإبرة، ثم حان موعد الشراب. وو...

وضعت أصابعي على فمها.

ـ هس. تعالي إلى غرفتي.

كانت نظرات أبي تملأ جسدي حناناً وشوقاً.

سنسافر هذا الصباح.

خفت أن لا أعود إلى هذا البيت. وخامرني إحساس فاجع. أعدت النظر في كل قصائدي، أدخلت عبارات جديدة، وحذفت عبارات أخرى. وضعت في حقيبتي أجمل ملابسي. مزّقت أوراقاً كثيرة. أخفيت صورة أمي في دُرج الخزانة وأقفلته. أقفلت الخزانة على أشيائي الصغيرة كلّها. خرجت إلى الصالون. وضعت الحقيبة الجلدية بجانب الباب. وجدت أخويَ وزوجتيهما وكلتاهما حامل. نظراتهم توحي بالخوف والأسى.

ابتسمت لهم.

قال أخي الكبير:

- ستعودين يا حنان. إننا ننتظرك.

وقالت زوجته:

- ستكونين إلى جانبي عندما ألد.

أما أخي الأصغر فلم يقل شيئاً. يشبه أبي إلى حد كبير.

قالت زوجته:

- سنراك قريباً يا عزيزتي. ستعودين في الصيف. وستقضين وقتاً طيباً في اللاذقية وكسَب.

حاولت أن أبدو مرحة. قلت:

- كنت مقصّرة جداً. يجب أن أقضي وقتاً عندكم في حلب وفي اللاذقية.

قال أخي الأكبر:

- أرجو أن تتكلل مساعيّ بالنجاح. سأحاول أن أنتقل إلى دمشق.

تركتهم.

دخلت المكتب. مسحت كل ما فيه بنظراتي.

«هل أعود؟».

جلست في المقعد الوثير ونظرت إلى الكتب الكثيرة «عمر الإنسان قصير مهما عاش. هناك أشياء كثيرة يجب أن يعرفها قبل أن يرحل».

خرجت إلى الشرفة. الصباح المبتلّ يبدو معتماً. خفت. هذه أول مرة أركب فيها طائرة. تذكرت كلمات أم حسن «يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيّدة». ما الفرق، في الطائرة، تحت أيدي الأطباء، في حادث ما. «لا يذهب إلا الذي انتهى عمره».

لا يذهب إلا الذي انتهى عمره. ربما سأعيش مئة سنة. الحياة جميلة ويجب أن تعاش بكل لحظاتها.

داعبت أوراق شجرة الياسمين الخضراء. بدأت أزرار زهورها تنبت. هل سنجلس تحت ظلالها في الصيف

المقبل... هل سأنتظر عودة أبي وأنا أضمّ أزرارها في خيط وأجعله طوقاً أعلّقه في عنقي؟

لن تتغير الأشياء. رحلت أو لم أرحل.

وفيما أنا واقفة لمحت سيارة الدكتور فؤاد تدخل من فم الشارع.

لا شك في أن أبي إلى جانبه.

عدت إلى الصالون. دخل الدكتور فؤاد وخلفه أبي. صاح الدكتور فؤاد بمرح:

- هل أنت جاهزة يا حنان؟

- تماماً.

والتفت نحو أبي.

- وأنت يا عزّت؟

- كل شيء جاهز.

- هيّا إذن.

أسرع أخواي وحملا الحقائب، وعاونتهما الممرضة السمينة بحمل بعضها.

خرجت من البيت وأنا أحاول جاهدة إخفاء اضطرابي. لا أدري لماذا خطر ببالي أن أعدّ الدرجات وأنا أهبط عليها.

فتحت باب سيارة الدكتور الأمامي وجلست. التفتُّ نحو المدخل فإذا بأم حسن تمسح دموعها، بينما راح

أبي يحدّثها حديثاً طويلاً. أشحت عنهما ورحت أتأمل منزلنا.

بعد قليل صعد فؤاد وأبي إلى جانبي بينما صعد أخي الصغير إلى المقعد الخلفي، وصعد الآخرون إلى سيارة أجرة، وانطلق الركب. وراحت شوارع دمشق تتخطف من أمام عينيَ الدامعتين كالظلال المحترقة. لكن الغيم أخذ بالانحسار لتشرق شمس دافئة. مررنا بمباني الجامعة فتساءلت: هل أعود وأتابع دراستي؟ وتذكرت أن الصديقات سيكنّ الآن في المطار.

اقتربنا من المطار. وما إن نزلنا إلى الصالون حتى أسرع إليَ أناس كثيرون. لم أكن أعرف أن لي كل هؤلاء الأصدقاء. ضمّتني هيفاء إلى صدرها ودموعها تتجمع في عينيها.

ـ سترجعين بالسلامة يا حنان.

«في ثوان انمسح حقدي عليها».

كانت هناك أيضاً سوسن، وامتثال، ورباب، وفتيات كثيرات. وهناك زملاء أبي والدكتور جوزيف وأخواي وزوجتاهما وأقرباؤهما.

أحسست أنني أحب كل هؤلاء. وترددت في أعماقي صلاة خافتة:

«يا ربَ أعدني إليهم».

وغمرني الجميع بأحاديثهم. كانوا كلهم يبثّون فيّ الأمل. كلهم قالوا إنهم ينتظرونني.

سلّمني الدكتور جوزيف عدة رسائل. قال إنها رسائل توصية للأطباء في المستشفى، كلهم أصدقاؤه وسيعتنون بي.

بحثت عن أبي بكل نظراتي. لمحته أخيراً يقترب منا وقد أكله الهمّ، وأرهقت وجهه الشجون. همس بصوت مخنوق:

ـ حان الوقت يا حنان.

وسرعان ما ضمّني أخي الأكبر. ثم الصغير ثم بقية الثلّة.. كانت الدموع كثيرة، وراحت الممرضة السمينة تجهش بالبكاء كالصغار. أحببتها وقررت أن أجلب لها هدية.

خطونا إلى أرض المطار.

بعد قليل تلفتّ إلى الوراء فوجدت عشرات الأيدي تلوّح لي. ولمحت جيداً هيفاء وسوسن وامتثال ورباب. كنّ يبكين. رفعت يدي لهن. «هل سأراكن مرة أخرى؟». لوّحت بكل قوتي. ثم تقدمت خطوات أخرى.. التفتُّ. مازالت الأيدي ترتفع.. رفعت يدي، وتقدمت، تقدمت. الوجوه التي أحببت تسقط من الذاكرة الواحد تلو الآخر. صعدت السلّم، أبي ورائي. وقبل أن تبتلعنا الطائرة التفت إلى الوراء وألقيت نظرة أخيرة. مازال

الجميع يلوّح لي. دخلنا. جلست وأبي في مقعدين متجاورين. بعد لحظات أغلقت الأبواب وأخذت المحركات تدور. تحركت الطائرة وطلب إلينا أن نربط الأحزمة. ربطنا الأحزمة. ثوان، ثم أقلعت الطائرة بنا وأخذ بناء المطار يصغر حتى أصبح ككوخ يلعب فيه الصغار. اتجهت الطائرة بنا أولاً فوق دمشق. وبدت المدينة من النافذة كأنها لوحة حزينة رسمها فنان في لحظاته الأخيرة. جبل قاسيون ينزلق إلى القلب فتحضنه دمشق بذراعيها، والغوطة الخضراء تحيط بالمدينة من كل أطرافها.

حاولت أن أعرف مكان بيتنا الذي هجرت، فلم أستطع. لكن الجامعة ظهرت جيداً.

دارت الطائرة بنا دورتين ثم قفلت باتجاه الغرب. رميت نظراتي الأخيرة نحو المدينة فأحسست كأنها تنسحب من عظامي. كما لو أنها الدم الحي. انسابت دموعي فأخفيت وجهي في زجاج النافذة. كانت المدينة تبتعد وسرعان ما غمرتها الغيوم. حاولت أن أستعيد هدوء نفسي فلم أستطع.

مدّ أبي يده نحوي، وأمسك بيدي. التفتّ إليه فإذا الدموع تغمر وجهه. هو أيضاً يبكي.

ـ أنت حزين يا أبي.

ـ الوداع مرّ يا حنان.

صمت لحظة، ثم أردف:

- اذكري هذه اللحظات جيداً، عندما تعودين سيصبح لك ذكريات كثيرة.

صمت لحظة أخرى، ثم قال:

- أنت خائفة يا حنان؟

- أبداً.

- ليس في الأمر أي خطر.

- لا يهمّ ما دمت أنت معي.

رفع يدي إلى صدره وضمّها. وأخذ يضغط عليها بأصابعه كأنه يخاف أن أفلت منه. بعد لحظات قال:

- انظري.

تطلعت من النافذة نحو الأسفل، فإذا بنا فوق البحر. كان البحر رائع الزرقة، يعانق في أطرافه الأفق، وكانت البواخر تبدو على سطحه قطعاً بيضاء كاللؤلؤ. هتفت:

- يا إلهي. ما أجمل هذا العالم.

دخلت اليوم إلى المستشفى.

ذكرت للممرضة اسم الطبيب، فقالت لي شيئاً بالألمانية لم أفهمه، وأشارت لنا بيدها أن نجلس. قضينا ليلة أمس في برلين. كنا متعبين، ومن سوء الحظ، أو ربما من حسن الحظ، لم نجد غرفة واحدة بسريرين، فاضطررنا أن ينام كل منا في غرفة. كنت مرهقة إلى حد العياء، فنمت على الفور.

في الصباح هتف أبي إلى سفارتنا، وكان القائم بالأعمال صديقه، وسرعان ما جاءت سيارة تأخذنا إلى السفارة. استقبلنا القائم بالأعمال وعانق أبي وقبّله، وأخذ يمتدح جمالي، ثم وجّه الحديث إليَ قائلاً إنه يعرفني منذ كنت طفلة، وصرت الآن صبية تخلب العين وتأسرها. وعندما عرف سبب قدومنا، راح يبث الاطمئنان في صدْرَينا: لا تخافا، العلم هنا متقدم للغاية، ثم إن البروفيسور هايدن من أشهر جرَاحي العالم، وستنجح العملية مئة في المئة، أنا متأكد من ذلك، لا تخافا.

بعد قليل حملنا بسيارته إلى المحطة، فأخذنا القطار إلى لايبزغ.

تذكرت كيف حاول أبي في الطريق أن ينزعني من أفكاري طالباً إليَ أن أتسلى برؤية هذه البلاد الجديدة. فقلت له: «في العودة يا أبي سأشاهد كل شيء. لدينا وقت طويل».

صمت. ربما أدرك حالتي النفسية من خلال حالته. إننا نقترب من الحد الفاصل، وما أصعب أن يواجه الإنسان مثل هذه الظروف.

عند الظهر وصلنا لايبزغ. وضعنا حقائبنا في أقرب فندق ثم أسرعنا إلى المستشفى ومعي حقيبة صغيرة فيها أشيائي.

عادت إلينا الممرضة. وقادتنا عبر ممر طويل إلى غرفة وجدنا في مدخلها الدكتور هايدن ينتظرنا مرحباً بالإنكليزية.

ـ أهلاً. لقد جئتما في الوقت المحدد.

وبينما كنا ندخل الغرفة، قال:

ـ لقد هتف لي السيد القائم بالأعمال السوري يحدثني عن مجيئكما، وأكد أن السفارة يهمها أمركما.

جلسنا.. قال موجهاً الكلام إليَ:

ـ يا آنسة، خلال أسبوع واحد ستصبحين معافاة، ثم تبقين تحت المعالجة خمسة أسابيع أخرى.

وقال مخاطباً أبي:

ـ هل اخترت فندقك؟

ـ أجل. قبل قليل.

ـ على كل حال تستطيع أن تزورها كل يوم صباحاً.

وضغط الطبيب زراً على طاولته، فدخلت ممرّضة خاطبها بالألمانية ثم خرجت. قال الطبيب:

ـ سأجلب لك ممرضة تتقن الإنكليزية حتى تستطيعي أن تقولي لها كل شيء.

شكرته. فُتح الباب ودخلت ممرضة شابة، شقراء جميلة، خاطبها الطبيب بالإنكليزية مشيراً نحوي:

ـ الآنسة حنان، مريضتك الجديدة.

وقدّمها إليّ قائلاً:

ـ صديقتك هيلغا.

قال لها الطبيب:

ـ اكتبي التعليمات.

أخذت ورقة وقلماً وراحت تسجّل ما يقوله الطبيب: التحاليل، التخطيط، التصوير، كل هذا يجب الانتهاء منه اليوم.

ثم طلب إليها أن تأخذني إلى غرفة مستقلة، وأشارت إليّ أن ألحق بها. ودعنا الطبيب فقال مخاطباً أبي:

ـ اذهب لترى الغرفة. ثم تستطيع أن تذهب إلى فندقك لترتاح قليلاً. إلى اللقاء.

خرجنا. مشينا في ممر طويل حتى اقتربنا من غرفة تحمل الرقم 312. عندما دخلنا الغرفة وجدتها مريحة

ومضيئة ولها نافذتان كبيرتان، إحداهما تطلّ على الحديقة الواسعة وعن بعد على مباني الجامعة الأخرى. أما النافذة الثانية فتطل على الممر إلى جانب الباب. وفي زاوية الغرفة مغسلة وحاجز قماشي يفصلها عن السرير الصغير. وكان كل ما في الغرفة أبيض.

انتظرت الممرضة أن أطلب إلى أبي أن يتركنا، وقد عرفت ذلك من نظراتها، فالتفث نحوه وقلت:

- اذهب إلى الفندق يا أبي.

خطا بضع خطوات ثم قال:

- سأطلّ عليك في المساء.

سألث الممرضة إن كان مسموحاً بالزيارات المسائية. قالت:

- الأفضل أن تكون زياراته لك في الصباح، بين العاشرة والثانية عشرة.

هزَ أبي رأسه في أسى، ثم قال لي:

- هذا وقت ضئيل. يجب أن أراجع البروفيسور بهذا الخصوص.

صمت، ثم أردف:

- يجب أن لا نُعامَل مثل المرضى المحلّيين.

وتركني أبي.

طلبت الممرضة أن أخلع ملابسي، وسألتني إن كنت قد جلبت معي قميص نوم، فأشرت بالإيجاب. قالت:

ـ هذا أفضل من أجل الفحوص.
وفيما أنا أخلع ملابسي سألتني:
ـ اسمك حنان، ماذا يعني هذا الاسم؟
قلت لها بالإنكليزية:
ـ يعني (Pity) .
ـ اسم جميل. أنت من إسبانيا أليس كذلك.
ـ إسبانيا... كانت لنا منذ زمن بعيد.
لم تفهم هيلغا ما أعني. فقلت:
ـ أنا عربية من دمشق. كانت إسبانيا للعرب قبل قرون.
لاحظت في عينيها الدهشة. قالت:
ـ أنت عربية؟ غريبة! أنت جميلة جداً.
فهمت ما تقصد.
ـ أنا فتاة عادية بالنسبة إلى فتيات بلدي.
صارت أكثر دهشة.
ـ أنا أعرف أن العربيات سمراوات جداً. في الصيف الماضي كانت عندنا مريضة من مصر.
ـ بلاد العرب كبيرة. قسم منها في أفريقيا، واللون الغالب على هذا القسم هو اللون الأسمر.
شعرت في تلك اللحظة بحنين فاجع إلى دمشق، وتذكرت كل شيء فيها فرجوت اللّهً أن يردّني إليها معافاة.

وأحسست أن وجه هيلغا قد ارتاح لي كثيراً، فسألتها عن حالات بقية المرضى، قالت لي:

ـ هذا القسم يُسمّى قسم جراحة القلب للنساء. لدينا الآن ما يقرب من ثلاثين حالة مُعدّة للعمليات.

ـ بالنسبة إليّ؟

ـ بالنسبة إليك أظن أنه سيقرر موعد العملية بعد غد.

تطلّعت إلى ساعتها، وقالت:

ـ أنت جائعة. إليس كذلك؟

ـ جداً.

ـ سأجلب لك طعام الغداء. ثم ترتاحين.. غداً سنبدأ بالتحاليل.

بعد قليل جلبت الطعام ممرضة أخرى، قالت لي بضع كلمات لم أفهم منها شيئاً. ثم قدمت لي الطعام وتركتني. كان نوعاً من الخضار المسلوقة وقطعة من الخبر.

كنت جائعة. فالتهمت الطعام بسرعة. ثم استلقيت على فراشي ونمت.

استيقظت في المساء على يد تهزّني، كانت يد هيلغا، التي جلست إلى جانبي.

سألتها إن كان أبي قد جاء، فأوضحت أنهم لن يسمحوا له. قلت:

ـ حتى ولو سمح له البروفيسور.

- لن يسمح له البروفيسور. إنه شديد من هذه الناحية. النظام يجب أن يطبّق على الجميع.

- هيلغا، أنا مرتاحة لك كثيراً.

- وأنا كذلك. أين تعلمت الإنكليزية؟ أنت تلفظينها جيداً.

- نحن نتعلم الإنكليزية أو الفرنسية إلى جانب لغتنا الأصلية. بالنسبة إليّ كنت أحب أن أتعلم لغة أجنبية فصرت أقرأ قصصاً وروايات وشعراً بالإنكليزية.

- هذا رائع.

- هيلغا. أنا خائفة. خائفة من العملية الجراحية.

- ولِمَ؟ أليس البروفيسور هايدن هو الذي طلب منك المجيء؟

- بلى هو.

- إذاً لماذا أنت خائفة؟ لو كان هناك أي خطر لما طلب منك المجيء.

صمتُّ. لم أرد أن أقول لها إنني خائفة من الموت، خائفة أن لا أعود. لم أرد أن أقول إنني عاشقة وإنني خائفة أن أفقد حبي إلى الأبد، خائفة لأنني سيدة بيت رائع قد لا أعود إليه.

جاءت الممرضة التي جلبت لي طعام الغداء. كانت تحمل أيضاً طعام العشاء، قطعة من الجبن وقطعة من

الزبدة، وصحناً صغيراً من المربّى، وقطعة من الخبز الجاف، وقدح شاي.

قالت هيلغا:

- تناولي عشاءك ونامي. يجب أن ترتاحي. فغداً سوف تتعبين.

- ماذا؟

- غداً سيكون التحليل والتصوير والتخطيط.

ودّعتني. أكلت، ثم استلقيت. لم أنم إلا بعد وقت طويل. كنت خائفة، خائفة.

جاءت هيلغا باكراً. أخذت البول ثم عادت وأخذت دماً من أذني وذراعي. وبعد قليل رجعت وأخذتني من يدي إلى مكان آخر عرفت أنه مكان التصوير. هناك طلبت إليّ أن أخلع قميصي وأقف خلف نسوة كثيرات كنّ يتقدمنني.

لم أفهم شيئاً من الممرضة التي كانت تصوّر، لكنني عرفت من تكرار كلماتها التي تطلقها على وتيرة واحدة، أنها تطلب أن توقف المريضة تنفّسها.

تذكرت الطبيب الدمشقي وهو يقول لي: اقطعي تنفّسك لحظة. تستطيعين أن ترتاحي.

الممرضة الألمانية تقول بالإيقاع نفسه، ربما بكلمات متشابهة كأنها جزء من الآلة التي تصوّر بها.

جاء دوري أخيراً.

قالت شيئاً، فقطعت تنفسي. قالت شيئاً آخر فتنفّست. أعطتني رقماً، وطلبت إلى التي كانت خلفي أن تتقدم.

أخذتني هيلغا إلى مكان آخر، غرفة واسعة مليئة بالخزائن والرفوف والزجاجات الملوّنة والعقاقير.

تقدّم مني رجل طويل، يرتدي البياض. تمددت وحدي على السرير الجلدي الصغير «لقد تعوّدت». وأخذ الرجل يلصق الأشرطة تحت ثديي الأيسر وفي يديَ وقدميَ، وقفت هيلغا إلى جانبي وصارت تنقل إليّ التعليمات. بعد قليل شكرني الرجل بالإنكليزية وأعطاني رقماً. قادتني هيلغا من جديد إلى غرفتي، وفي الطريق أخذت مني الرقمين، وقالت هامسة:

ـ انتهيت يا عزيزتي. سنعدك الآن للعملية.

وفي الغرفة، لم يمضِ قليل وقت حتى جاء أبي. كان متعباً كأنه لم ينم طوال الليلة الماضية. قبّلني، وجلس أمامي. كنت أنا أيضاً متعبة. تركتنا هيلغا، ثم قدّمت لي الممرضة الأخرى فطور الصباح. قال أبي:

ـ كيف أنت يا حنان؟

ـ تعبت اليوم، تحليل وصور وتخطيط. قبل مجيئك بلحظات عدت.

ـ هل زارك البروفيسور؟

ـ حتى الآن لم يزرني.

ـ هل ترين من الضروري أن أذهب إليه.
ـ لا. ليس ضرورياً. قالت لي هيلغا إنه سيراني اليوم.
ـ ربما بعد أن يأخذوا له نتائج التحاليل والصور والتخطيط.
ـ أظن ذلك. وأنت كيف حالك يا أبي؟
ـ لم أنم يا حنان.
ـ أعرف ذلك. هذا واضح من عينيك.

وأحسَسْت بشوق مفاجئ إليه، فوَدِدْت أن أهتف له أن تعالَ خذني بين ذراعيك. لكنه كان مهدَماً كالنبع المقطوع.

ـ هل أنت خائفة يا حنان؟
ـ كنت خائفة. الآن لا. لقد رأيت العشرات يُعدّونهن لإجراء مثل عمليتي. بابا، لم يكنَّ خائفات.
ـ أرجو أن ينتهي الأمر بسرعة.
ـ عندما يراني البروفيسور اليوم سيقرر موعد العملية.

أخذ يدي بين يديه، وراح يداعب أصابعي بشفتيه.

ـ عندما نخرج من المستشفى، سنتجوّل في أوروبا. أليس كذلك؟
ـ سآخذكِ إلى المكان الذي تشتهين.
ـ إلى كل مكان؟
ـ إلى كل مكان.

تطلعت في عينيه. كانتا كعاشقين جريحين. شددته إلى صدري وهمست:

ـ وننام في غرفة واحدة؟

ونظرت إليه.

لم يجب للتوّ. رفع وجهه نحوي. كانت عيناه دامعتين. وبينما أخذت الدموع تنساب على وجهه المتعب، همس:

ـ أجل يا حبيبتي. أجل.

امتلأت السماء بأجنحة طيور بيضاء. وأحسَسْت بكل عِرْقٍ في جسدي يغنّي. وكنت أودّ أن أقبّله لولا أن الباب فُتح وأطل البروفيسور مبتمساً. قال:

ـ لقد أتعبناك يا آنسة. لا بأس. بعد غد الثلاثاء سنجري العملية.

أغلق الطبيب الباب. وانغلقت الدنيا فوق صدري.

كل شيء غائم.

ليلة أمس، حُقنت، فنمت نوماً عميقاً.

باكراً غمر نور الصباح الغرفة. فتحت عينيّ. كانت هيلغا فوق رأسي.

- صباح الخير يا حنان.

هناك، كان يقف أبي. اقترب مني يجرّ خطواته كمطعون.

اختنقت الكلمات في حلقي.

- يا أبي أنا راحلة.

أمسك بيدي وانحنى فوق رأسي يقبّلني ثم همس:

- لا تقولي ذلك يا حنان، يا حبيبتي، أرجوك لا تقتليني.

اقتربت هيلغا ووضعت يدها على كتف أبي وقالت له بالإنكليزية:

- سيدي لا تخف. العملية ناجحة. وليس في الأمر ما يقلق.

تعلقت نظراته بشفتيها، كأنه يريد أن يصدّق. أنا أيضاً أردت أن أصدّق. ماذا لو اهتزت يد الطبيب؟ ماذا لو

تميّع الدم؟ ماذا لو حدث ما لم يكن في الحسبان... حدث احتمال العشرين بالمئة؟

ـ هيلغا أرجوك. اتركينا قليلاً.

نظرت هيلغا إلى الساعة. وقالت:

ـ سنعود إليك بعد عشر دقائق.

مضت، وأغلقت الباب.

ـ تعال يا أبي.. اجلس هنا.

جلس أمامي، على حافة السرير. كان يرتجف. وكان وجهه منتفخاً:

ـ أنت خائف يا عزت؟

أخذ يدي بين راحتيه:

خائف يا حنان.

ـ أنا خائفة عليك. ولكن بعد ساعات سأعود لك معافاة.

ـ أرجو من اللهً أن تعودي إليَ.

ـ سنخلص من هذا الهمَ يا أبي.

ـ أرجو ذلك. أرجو ذلك يا حنان.

وكنت أودَ أن أوصيه بأشياء كثيرة، لكنني خفت عليه فقد يموت. حدَقت في عينيه الدامعتين. همست:

ـ بابا، أنا أحبك.

ـ أحبك أكثر يا حنان.

ـ من أجلك يجب أن تنجح العملية. لن أتركك وحيداً.

ـ بدونك لن أعيش.

ـ بابا، لا تخف. سنعود إلى بيتنا القديم. سأتلو عليك قصائدي وأنت تدخِّن تبغك المعطَّر. كم أشتاق إلى مكتبك، إلى مقاعدك، إلى كتبك؟

ـ أنا أيضاً أشتاق إليك وأنت تقرئين قصائدك، وتعتنين بي، وتملئين البيت حناناً.

صمت قليلاً. ثم أخذت شفتاه تتمتمان كأنهما عينان تبكيان.

ـ حنان، إذا حدث لك شيء فلن أعود إلى هناك أبداً. أنا أنتظرك يا حنان. ليس لي في الدنيا سواك. سأصلِّي كثيراً من أجلك. اللهً ملك عادل يعرف مقدار حاجتي إليك. لن يفجعني بكِ. أنا متأكد من ذلك ومطمئن.

انبثق من داخلي نور مفاجئ.

«إذا حدث لي شيء فهذا عقابي أنا. لأنني أنا المذنبة، أنا الخارجة عن التعاليم، أنا المتمردة على القِيم والتقاليد. قد تكون عدالة اللهً أن ينتقم مني بوضع حد لحياتي على هذا النحو. ولكن كم ستتعذب يا أبي. الموت لن يحل المشكلة. وأنا لا أستطيع أن أتمالك مشاعري، وأتماشى مع القِيم والتقاليد. ما أحسّ به أنني أحبك، أتمناك. ثم ما عدا ذلك رماد. هباء.».

عادت نظراتي إليه. كان يتمتم كأنه يصلّي. وكنت أودّ أن أهزّه وأطلب إليه أن يقبّلني من شفتيّ، يمتصّ

لساني. ليكن وداعي له هكذا، فقد أعود إليه جث
هامدة، جثة باردة لا حياة فيها ولا صوت. لكنني
أشفقت عليه. كان مغمض العينين، يبتهل ويرتجف
وبدا لي الآن كأن عمره مئة عام، كل يديه عروق تنبض
كل فَوْدَيه وعُنقه عروق تنبض.

لم تعد تهمّني حياتي بقدر ما يهمّني هو. صرت خائف
عليه. وفي تلك اللحظة تمنّيت لو لم يكن لي أب، لكا
الأمر عندي سواءً. عدتُ أو لم أعد.

أحسست بجسده كله يرتجف. كان مضطرباً. فخفـ
أن يحدث له شيء قبل أن يأخذوني.

«أنا محتاجة إليك يا ربّ وأنت لست بحاجة إلى أحد
احفظني له واحفظه لي
يا ربّ
أنت عادل وكريم
اتركنا نعش
يا ربّ
أرجوك».

أخذت دموعي تنساب كأن جرحاً انفجر. وكنـ
سآخذه إلى صدري، أضمّ رأسه بين نهدي، لكن البابـ
فُتح ودخلت هيلغا وممرضة أخرى. رجت هيلغا أبي أ
يخرج. ثم تناولت زرقة من يد زميلتها، وكشفت عـ

فخذي الأيسر وحقنتني. أخذت زرقة ثانية وكشفت عن فخذي الأيمن وحقنتني. ثم همست:

ـ إنه مخدَر. سنأخذك بعد قليل.

ـ هيلغا أرجوك أعيدي لي أبي.

فتحت الباب. كان واقفاً كالصنم يحدّق في الزجاج. أشارت له أن يدخل. اقترب مني:

ـ ماذا يا حنان؟

ـ لقد خدّروني التخدير الأول.

ظلت هيلغا واقفة. فجلس على المقعد وصار يحدّق فيّ.

قلت له بالعربية:

ـ أحسّ أنني أسمن يا أبي.

حاول أن يبتسم، وبدت لي ابتسامته كأنه يغتصبها اغتصاباً.

بعد قليل شعرت كأن صدري ينفتح للبحر. ثم أخذ صوت الموج يعلو في جزر ومدّ رتيبَين. أين أنت يا أبي؟ مازال على المقعد. عيناه واسعتان، واسعتان. وجهه يشرق بحب آسِر. السمك يأكل السمك. الموج يغمر المدن. ضحكت. كل النوافذ يتدفق منها الماء. أين أنت يا أبي؟ ضحكت. مقعده يهتزّ كالأرجوحة. السمكة الكبيرة تأكل السمكة الصغيرة. الأسّرة والهواتف والتلفزيونات تسقط من الشرفات. ضحكت. الموج

يغسل حجارة الطريق. في السماء، في سقف الغرفة وجه كبير. عيناه تنضحان بالدموع. إنه يغمرني بالدموع، وأنا أغرق. مسحت جبيني. ابتلَت يدي. أنا أغرق. أين أنت يا أبي؟ انتشلني يا أبي. مازال في مقعده يهتز إلى الوراء، يهتز إلى الأمام، إلى هذا الجانب، إلى الجانب الآخر. أعطني يدك يا أبي. لا يسمع. عيناه واسعتان. خذني إليهما. أغلق عليَّ أجفانك. الشبح الآخر يتموج. البياض الواقف يتمايل مع الموج. الموج مالح. ريقي مالح. عرقي مالح. الغرفة تميد، تميد. يدي تلمس فخذي. ضحكت. فخذي سمين كالبقرة. البقرة ترمقني بعينيها الكبيرتين. ترتدي البياض أيضاً. عيناها بلون البحر. البقرة يا أبي، هل رأيت بقرة عيناها بلون البحر؟ أبي يحدّق فيّ. عيناه وحدهما جميلتان. خذ يدي يا أبي. أنا أغرق، أنقذني. هاهو مركب وحيد يقترب. أشرعته البيضاء تمسك السحب. أخيراً ستنقذني يا أبي. يده في يدي. المركب هادئ. الموج تحته هادئ. لكن للبحر ممرَات بيضاء. والأنوار معلّقة فوق الممرَات. يد أبي حنون. لم يعد يهمّني شيء. الأضواء، الأضواء. واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة، خمسة، ستة، سبعة، ثمانية، تسعة، عشرة. واحد اثنان ثلاثة ثلاثة ثلاثة..

أفلتت يد أبي. صرخت: «بابا، بابا لا تتركني. البقرة البيضاء تضع جسدها علي. أبحث عن يد أبي، أبحث عن وجهه، أناديه. أناديه، أناديه. يده، أين يده؟ المركب يسبح فوق الموج. الأضواء تشتد، باب يُفتح. باب يُغلق. هرب البحر. هربت البقرة. هربت يده. عيون فقط. وبياض، بياض. أيدٍ مطاطية، تتحرك كالآلة. مِقصّات، سكاكين. أين أنت يا أبي؟ عيناه تحدَقان فيَ خلف قناع أبيض. السكين الباردة تحزّ أسفل قدمي. أشرطة تدخل في عروقي. أين أنت يا أبي؟ سقطتَ في البحر. أكلتك السمكة.

سيأكلونني...

رأسٌ من الزجاج يتدلّى كالمشنوق فوقي، ممتلئ بالدم الأحمر. أين أنت يا أبي؟ المدن تتهدم. دمشق يبتلعها الموج. بيتنا يمعسه طفل بقدميه. أين أنت يا أبي؟ بعيداً تأكلك السمكة، أكاد أختنق. حلقي. أكاد أتقيأ حلقي. المطاط في حلقي. يداي تتخبطان، تضربان صدور الأشباح البيضاء. الأشباح تلتصق بي. تمسك يدي. أين يدي؟ أين يدك؟ أين أيدينا يا أبي؟ الجبال تنهار. الأنوار تتلاشى. الظلام. الليل. سواد السواد. أين أنت يا أبي؟ جاء البحر. دفع الأبواب. أنت يا أبي، أنت.

جيشك الموج. أنت فارس أخضر. يداك. عيناك. أنت يا أبي. أنقذني. الأشباح البيضاء تهتز. الغيم يلف

الوجوه. الستارات تنسدل. خذني بين ذراعيك. اذهب بي بعيداً، بعيداً، بعيداً.

بـ عـ يد ا... بـ..

آه...ما أدفأ صدرك.

ـ انتهت ـ

بقلم: زينب عساف

علاقة غريبة تلك التي جمعتني بالشاعرة السورية الراحلة أمل جرّاح، لجهة أننا تعارفنا وتصادقنا بعد موتها. الفضل في ذلك يعود إلى رجل عرف كيف يُبقيها حيّة هو زوجها الروائي ياسين رفاعيّة، الذي ملأ بيتها بورود الألفة كما كانت تحبّ، كما جعل صورها في كلّ ركن من ذاك المنزل الدافئ الذي يشبه كتاباً عتيقاً، وحرص على الاعتناء بأزهارها على شرفتها في آخر شارع الحمراء.

لذلك اضطربت حين أعطاني رفاعية، ذات ظهيرة، مغلّفاً سميكاً اصفرّت أوراقه قائلاً بلهفة: «هذه مخطوطة أول رواية كتبتها أمل حين كانت صبيّة يافعة، وجدتها أخيراً بين أوراقها وأريدك أن تُقدّمي لها» (كانت الرواية قد حصلت على «جائزة مجلّة الحسناء» للعام 1967، لكنها - ويا للغبن - لم تُنشر حينها).

ما دفعني إلى الاضطراب هو «قربي» من أمل، لأنني دائماً أعاني قصر النظر مع الأصدقاء، وأفضّل قراءة أعمال أشخاص لا أعرفهم ولا يعرفونني كي لا تمتزج نظرتي الأدبية بعاطفتي الإنسانية فتختلط عليّ الأمور.

لكن لم يكن ثمة من مجال للهرب، فأنا أمام رواية كتبتها صبيّة دمشقية، بجرأة كبيرة، في منتصف القرن الماضي تقريباً. رواية تسافر في المحرَّم، من خلال علاقة جدليّة تربط فتاة يتيمة الأمّ بأبيها.

هذه الرواية لم تُنشر حينها، والأكيد أنها كانت ستغيّر تاريخ السرد النسوي العربي لو حدث ذلك. فنحن نتحدّث عن العام 1967 أي بعد أقلّ من عشرين سنة على صدور الرواية النسوية العربية الأولى (المتعارف عليها رسمياً أقلّه، كي لا ندخل في نقاش الأولوية الطويل) «أروى بنت الخطوب» لوداد سكاكيني العام 1949. لكن، رغم ذلك، ومرّة أخرى، كان لا بدّ من نسيان العلاقة الشخصية مع السمراء الجميلة أمل جرّاح، وقراءة العمل بعين لا أنفي قسوتها أحياناً لأنها ابنة جيل لاحق، لم يعرف الأجواء الأدبية السائدة في أواخر الستينيّات إلا من خلال ما تناهى إليه، بما لا يكفيه لتكوين صورة كاملة العناصر. لقد قرأت رواية أمل بعين معاصرة إذاً. عين تحاول إنشاء مسرح أواخر الستينيات بما توافر لها.

بعدما فرغت من قراءة هذا العمل تكوّنت لديّ مجموعة ملاحظات أولية، منها على سبيل المثال وجود صلة قربى ما مع شخصيتَين شهيرتَين هما لوليتا وإيمّا بوفاري. ومنها أيضاً تلك الرقابة الأخلاقية الصارمة التي

حاكمت بها أمل الخمسينيّة أمل الشابّة: فقد أخضعت الكاتبة الرواية في ما بعد إلى تشطيب عشوائي طاول كل ما يمكن أن «يخدش» حياءً أدبياً مستجدّاً لديها، ليس فقط من حيث تغيير «الديكور» (استبدال النبيذ بالكولا مثال صغير على ذلك)، بل أيضاً من حيث إفراغ العبارات من شحناتها العاطفية الصادمة، من خلال استبدالها بأخرى أكثر احتشاماً، فـ «شاذ» تصبح بعد تهذيبها «غير طبيعي»، و«أشتهيك» تصبح «أتمنّاك»، و«نشوى» تصبح «خجلى» وهكذا دواليك، وصولاً إلى شطب مشاهد كاملة من الرواية، وإقحام صورة الأمّ المرتدية الأبيض المؤنّبة لابنتها داخل الحبكة (هي في الواقع صورة أمل الرقيبة نفسها).

حقيقةً، وقعث أنا وياسين في حيرة، فرواية كهذه مصيرها النشر في النهاية، لكن هل يمكن مسايرة أمل الرقيبة التي أعملت قلمها تشطيباً وحذفاً عشوائياً في حبكة إما أن تكون جريئة وإماً أن ينتفي المشروع من أصله. إذ لا سبيل إلى إلباس موضوع مستفزّ لمجتمع محافظ في حينها، لا سبيل إلى إلباسه الحجاب على هذا النحو.

في النهاية طبعاً انتصرنا لأمل الشابة، تلك التي استعارت قلم حبر من دفاتر المراهقة، وكتبت مسوّدات الرواية على ألواح المدسرة الثانوية بعد انتهاء

الحصص، ثم محتها على عجل: تركنا أمل البرّية على سجيّتها، عملاً بنصيحة قدّمها لها يوماً صديقها الشاعر نزار قبّاني.

ها هي إذاً لوليتا الدمشقية تخرج اليوم إلى النور خالعة غلافها الأصفر العتيق، ومتمرّدة مرّتين: مرّة على التابوهات، ومرّة على أمل الرقيبة. رواية توضع بصيغتها الأولية بين يدي القارئ، وبين يدَي من سيجهدون كالعادة في تقفّي أثر السيرة الذاتية، لا سيما أن البطلة شاعرة ومصابة بمرض القلب أيضاً على غرار الكاتبة (حتّى أنا تصوّرت أن ذلك الأب لم يكن سوى صورة لزوج الشاعرة ياسين نفسه).

لكن، بعيداً عن أي إسقاط كان، لا بدّ من ملاحظة تلك «الراحة» التي كتبت بها الروية، هذين الاسترخاء والترف الشبيهَين إلى حدّ ما بأفلام الأبيض والأسود. لأن ثمة غياباً للعالم الخارجي تقريباً في السرد: ثمة انكفاء إلى داخل البيت الأبوي الذي يشكّل جثة صغيرة تحمي البطلة الخائفة من عاصفة ما في الخارج (تقول البطلة في نفسها مخاطبة الأب: «كل ما هو خارج ملابسك لا أعرفه». وتضيف: «كل هذا العالم يحترق خارج منزلنا»). وما خروجها من هذا البيت إلاّ حجّة للاشتياق والعودة. ولعلّ تعلق البطلة المرضيّ بأبيها ليس سوى نتيجة لهذا الانكفاء الذي يولّد لديها رغبة

مستميتة في الدفاع عن حدود المملكة الصغيرة، من هنا تخشى دخول أي أنثى أخرى إلى هذه الجنّة، سواء أكانت على شكل صورة (صورة الوالدة الميّتة التي تقتنص الفرصة لإزالتها) أم على شكل صديقة أو خادمة.

هل يسعنا القول إنها رواية الانكفاء داخل الرحم إذاً. لعلّ لفظة «رحم» ليست دقيقة لأن التعلّق موجّه إلى الأب هنا، لكن هذه اللفظة تحمل في جرسها ما يعبّر أفضل تعبير عن واقع العمل. فالبطلة تسعى إلى توسيع جدران البيت الأبويّ ليصبح بحجم عالم كامل (الكاتب الأميركي هنري ميللر يجمع بين الجنّة والرحم أيضاً معتبراً الأخيرة أجمل مكان في الكون)، لتعود بشكل من الأشكال إلى عمق العمق، إلى حيث لا شرائع أو قوانين من أي نوع. وبما أنها تنشئ جنّتها الخاصة فهي بالتالي ترجع ببشريّتها إلى البدء، حيث الإناث والذكور محدودون بشكل يصبح معه «السّفاح» ناموساً طبيعياً (تقول البطلة في أحد مونولوغاتها: «مجانين الذين ينادون بالقيم والتقاليد، الحياة ممنوحة لنا هكذا، لنعيشها بكل لذّاتها قبل أن تدفع بنا إلى حفرة صغيرة» وتقول أيضاً: «الحرام الحقيقي هو الشقاء»).

تختار أمل لبطلتها مصيراً محتوماً لا يخلو من الشعرية من خلال وصفها الموفّق لمشهد ما قبل العملية

الجراحية (على أي حال أمل جرّاح خبرت هذه الأجواء الطبّية جيداً)، وهي تجعل هذه البطلة ترضخ في النهاية لأحكام المجتمع من دون التخلّي عن أحلامها وإن تحوّلت تلك الأحلام إلى ما يشبه الكوابيس («اغمرنا بظلمتك يا ليل إلى الأبد»).

ابنة خائفة تلوذ بجدران البيت، ابنة مريضة أو مجنونة. يمكن إطلاق أوصاف كثيرة على حنان بطلة هذه الرواية، هي نفسها لا تتردّد في إطلاق الأحكام على نفسها («أنا حرام وشاذّة ومجنونة»)، لكنها بطلة غريبة، صبيّة تخرج بشعرها الأشيب اليوم في عصر ليس عصرها لتخبرنا أشياء كثيرة عن تحوّلات مجتمع وعن وجهات نظر أنثوية تعيد اليوم محاكمة نفسها لتدخل التاريخ الذكوري بامتياز.

(جريدة «الغاوون»، 1 آب/أغسطس 2009)

إليك

يا سيدي

وحدك...